

الهوى والشباب

في عهد الرشيد

صورة رائعة للحياة الاجتماعية
والثقافية والعاطفية في بغداد
عاصمة الامبراطورية العباسية
عهد هرون الرشيد .

تأليف

عمر ابو النصر

منشورات

مكتبة المعارف في بيروت



الطبعة الاولى
تشرين الثاني ١٩٥٥

مقدمة المؤلف

كتاب جديد

هذا كتاب جديد ، يعرض لأزهر العصور الاسلامية جلالاً وروعة وبهاء ، ويصف اعظم خلفاء الاسلام شهرة ومجداً، وبقاء على الأيام ، وأضخمهم اسماً ، وأبعدهم صوتاً ، وأشدهم على الاذن تأثيراً ...

ولقد تخيرت فصوله من غير مصدر واحد ، فاقتبست بحوث المستشرقين ، فيما يتصل بالتقسيم والترتيب والتبويب ، واعتمدت المصادر العربية فيما ينتظم مع اخبار السلف وفتوحات العرب ، وعملت على التوفيق بين مذاهب النظر المختلفة ، معتمداً على ذوقي المتواضع ، في تصوير الوقائع واستنباط الحقائق ، واستخراج العظات ، وتركت لمؤلفي الغرب ما هو مرتبط بهم ،عليق ببحوثهم ،من تبويب فصول ، وتقسيم موضوعات ، واستخراج دفائن ، وتصوير مجالس ، وأظن اني وفقت في الجمع بين هذين المذهبين الى حد بعيد..

وليس من شك في ان الانتقال من موضوع الى آخر ، ومن اسلوب الى غيره ، تطرية لنشاط القارىء ، واحماساً له على المضي فيما هو في سبيله ، واذا كان الامر كذلك ، فان القارىء سيجد والحالة

هذه فيما يستتبع من فصول ، ألواناً جديدة ، وأبواباً طريفة تبعث فيه نشاطه ، وتستأنف ما ضعف من انتباهه ، أصف له فيها من ألوان الحضارة ما يبعث فيه الزهو والاعجاب ، وأقص عليه من اخبار العبث واللهو ما يثير ويدهش ، كما أعرض عليه لوحة رائعة للعصر الذهبي الذي نعم به العرب ، يوم كانت امبراطوريتهم تمتد من أقصى المعمور الى أدناه ، وتتحكم بالدنيا الماضية كما لم تتحكم بها امة من الامم ...

ولشد ما يؤسفني ان يعرض كتّاب الغرب لهرون الرشيد وعصره قبل كتاب العرب ، وكان هذا لسنوات عديدة خلت ، استثارتهم هذه الصور الرائعة التي قرأوها عنه في كتاب « الف ليلة وليلة » فأحدثت في نفوسهم ألواناً مختلفة مترعة بالقوة والترف والمجد والخيال ... فكتب عنه « اوديسيو » المؤرخ الافرنسي يقول : « ان الناس في عهدنا لا يعرفون عن هرون الرشيد خيراً كثيراً ، ولعله أقل عظماء العالم حظاً في كتب تتناول تاريخه ببعض التفصيل والايضاح ، ومؤلفات تعني في البحث عن شخصيته ، وكيف كان يحارب ويحكم ، ويلهو ويعبث ، ويمعن في الكرم والسخاء ؛ ويتصدر مجالس الادباء والشعراء والموسيقيين سوى مايقرأه في أقاصيص « ألف ليلة وليلة » ، من اخبار ووقائع فيها حق قليل ، وفيها غلو وضلال كثير ...

« وهرون الرشيد خليفة استطار اسمه في الأرض ، من أقصاها الى أدناها ، فلا يجهله ولا ينكره عامل في معمل ، ولا طالب في مدرسة ، ولا موظف في مصنع ، ثم ترى ما هو مشهور مطبوع من اخباره ، لا ينتظم مع البحث التاريخي ، ولا يتسق مع الحقيقة

الواقعة ، ولا يتناول شخصيته الفذة ، وعصره الرائع ، واعماله وحروبه ، ولهوه وجده ، بالايضاح والتفصيل والدقة ، التي يجب ان تستقيم لمثل هذه الخليفة العظيم ...

« ومما يبعث على الأسف ان احداً من كتّاب الغرب انفسهم لم يعن بتاريخ هذا المليك الشهير ، وليس هناك في اللغات الاوروبية كتاب خاص به وبتاريخه ، ولست اذكر ان هنـاك من تناول شخصيته بالذكر الا ما خصه به كاتب انكليزي لخمسين سنة خلت من وصف مقتضب في كتاب حوى كثيراً من اخبار العظماء ، وهو كتاب قديم لا قيمة ادبية او تاريخية له ، مما تصح معها الاشارة اليه والاشادة بذكره » .

صور عديدة

وهرون الرشيد في الواقع شخصية غريبة ، لان حياته عبارة عن صور متناقضة اشد ما يكون التنـاقض ، فهو في بعض الأحيان خليفة مترف ، يسرف في ترفه ، ويغرق في لهوه وعبثه ، ثم هو أحياناً خليفة من أقوى خلفـاء الاسلام ، حارب خصومه فأثخن فيهم ، وغزا البيزنطيين فأمعن فيهم امعاناً لم يمعنه خليفه قبله ، ثم أذلّهم ، وفرض عليهم الجزية ، ثم تراه في صورة اخرى يحفظ ليحيى والبرامكة ما أفضوه اليه من خدمات ، ومـا قدموه من نصيحة ، حتى ليعهد اليهم بكل امره ، ويتخلى لهم عن ملكه ، وأخيراً نراه يشتد في التنكيل بهم اشتداداً ليس يتصل مع صلاته السابقة معهم في كثير ولا قليل ...

حيناً تراه قد ترك امر المملكة لوزرائه وانصرف الى حياته العائلية ولهوه وعبثه ، حتى ليظن المرء انه لم يخلق للأمر والسلطان، ثم لا نلبث ان نجده يطوف الاسواق ، ويتعرف امور الناس ، ويوغل في البيوت ، ويغشى المجالس والأندية ، حتى كأنه عمر ابن الخطاب في حدبه على رعيته ، ورغبته في احقاق العدالة الاجتماعية على الوجه الأكمل والأحسن .

ثم هو بعد هذا كله الخليفة العالم ، والفقيه المتأدب ، يتقرب الى العلماء والادباء والفقهاء ، ويشجع العلم والأدب والفنون ، حتى لايجد كبير امر في خدمتهم والقيام عليهم ،فاذا استطار لبك كل ما شاهدته من مختلف الصور ، وقعت على صورة أشد وأعظم ، وهي صورة الخليفه الورع الزاهد ، المتهالك على الصلاة والتقوى ، المقيم لشعائر الاسلام ، لا يترك منها واحداً... يقوم الليل ساهراً مصلياً، يتهجد ويقرأ القرآن حتى مطلع الفجر .

واذن فنحن امام شخصية غريبة ما في ذلك شك ولا ريب ، وللوصول الى فهم هذه الشخصية سلكنا سبيلاً جديداً ، فاعتمدنا في درس هذه الشخصيه الغريبة المصادر العربية ، وبحوث المستشرقين كما قدمنا، فخرج هذا الكتاب وهو تاريخ وحياة انسان ، وهو فوق ذلك وصف دقيق لخليفة كبير وملك عظيم ، وكيف كان يعيش ويأكل ويشرب ويلهو ويحكم ويقتل ويغزو ويغرق في البذل والعطاء ، فهو أصدق صورة لعصره في لهوه وعبثه وجده وثقافته.

ولقد اخذ الكتاب في الغرب يعنون العناية كلها بهذه الظاهرة الجديدة في دراسة التاريخ القديم وعظماء الشخصيات ، فلا يعنون

مثلاً بالأحداث التاريخية ، ما اتصل منها بالوقائع والحروب والمغانم والزحف والظفر والانتصار الا بمقدار ، ولا يذهبون يكللون رجال الحرب باكاليل الغار والفخار ، ولا يعدون من عظمتهم اقتحام المدن وهدم العمارة ، ومحق العلم والأدب ، وقتل الناس من اسرى وسواهم ، فان هذا وصف ناحية من نواحي التاريخ العالمي ، وليست من الخطورة الا بمقدار بالنسبة لسواها وغيرها من نهضات العلم ، وتقدم الأدب ، واستبحار العمران في امة من الامم وجماعة من الجماعات .

والواقع اننا اخذنا هذه النواحي الانسانية المختلفة بعين الاعتبار، فقصصنا في هذا الكتاب حديثاً طريفاً ليناً ، وتناولنا كل ناحية على مهل ، فتقدمنا فيها بجملة صالحة لا يخرج منها القارىء الا بوصف دقيق للحقائق التاريخية، وتحليل موفق لهذه الصور الفنية التي كانت تضطرب في هذا العصر الزاهر .

ولاجدال ان عصر هرون الرشيد من افخم العصور في الاسلام، وان لم يكن العصر كله من خلقه وانشائه ، فان له فيه نصيباً وافراً بما كان يعمل من تقديم العلماء وتكريم الادباء ، واكرام الشعراء ، وتغذية الألوان الأدبية كالغناء وسواها بالمال والسماح والتشجيع والتأييد .

اما الرشيد نفسه فقد تبسطنا في حياته تبسطاً أوحاه الحق ، وما ألفيناه في كتب الأدب والمحاورة من قصص ونوادر ، تؤيد بجملتها الصورة التي توفرنا على اظهارها في هذا الكتاب ، وهي صورة نعتقد بحق انها صادقة لا تعدو الحقيقة التاريخية الا بما تعدو الصورة الشمسية

الأصل ، وهو شيء قليل ضئيل .

المؤرخون العرب والرشيد

لقد تناول المؤرخون اخبار هرون الرشيد بشيء من التبسط كثير ، ولكن احداً لم يتناول ما في اخباره من تناقض الصور ، وتعدد الأشكال ، قال عنه صاحب الأغاني : « كان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة ، وأشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة » .

وقال غيره ان هرون الرشيد كان متديناً شديد التقوى ، يصلي في اليوم مائة ركعة ، غضوباً يسفك الدم لغير ما سبب ، وطروباً يملك الطرب عليه نفسه ومشاعره ، وهذه صفات ليس من السهل ان نتصور اجتماعها كلها في صعيد واحد وشخص واحد ...

تقرأ كتاب الأغاني فتخرج منه في كثير من الأحيان على صورة للرشيد يخيل اليك معها انه عاكف على اللهو والطرب ، لا عمل له الا ان يسمع الغناء ويخالط الندماء ، ويثيب الشعراء ، ولصاحب الأغاني كل العذر في ذلك لانه لم يؤلف كتابه تاريخاً يصف فيه اعمال الخلفاء المختلفة ، وما توفروا له من حسنات وسيئات ، انما ألف كتابه في الغناء ، فمن الطبيعي ان يقصر قوله على هذا الضرب وما اليه ، كما تقصر كتب طبقات النحاة واللغويين كلامهما على العلماء من الناحية النحوية واللغوية ، واذا كان هناك من خطأ غير مقصود في مؤلف كتاب الأغاني ، فهو ان يقصر القارىء فهمه اذا ما راح يقرأه ، على ان الغناء وحده يمثل حياة الرشيد المختلفة النزعات .

ونقرأ ابن خلدون فيقصر تصويره على الناحية الجدية والدينية ويذهب الى ان الرشيد لم يكن يعاقر الخمر لانه كان يصحب العلماء والأولياء ويحافظ على الصلوات والعبادات ، ويصلي الصبح في وقته ، ويغزو عاماً ويحج عاماً ، ويستدل ايضاً بأنه كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه — يريد المنصور — وانه كان يشرب شراباً من التمر على مذهب اهل العراق ، وفتاويهم فيه معروفة ، واما الخمر فلا سبيل الى اتهامه بها ، ولا تقليد الاخبار الواهية فيها ، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من اكبر الكبائر عند اهل الملة ، ولقد كان اولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم ، وبسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة ، وسذاجة الدين التي لم يفارقوها » .

فيرى القارىء والحالةهذهانهبين صورتين للرشيد تختلف الواحدة عن الاخرى كل الاختلاف ، وهو ما حمل بعض الادباء على القول بان ابن خلدون انما يصور ناحية واحدة من حياة الرشيد، واذا كان صاحب الاغاني معذوراً في الاكتفاء بوصف حياة اللهو والغناء في عصره ، لأن كتابه لا يعرض لغير هذا ، فليس يعذر ابن خلدون وهو مؤرخ عليه أن يذكر نواحي الرجل المختلفة ...

واما هذا الكتاب فقدعرض لنواحي الرشيد كلها ، فوصفه ناشئاً يتعثر في اول عهده ، ثم خليفة يترك الامر لوزرائه ، حتى اذا استفاض ذلك بين الناس ولهجوا به ، أعاد الأمر الى نصابه ، واستقل في حكم الأمبراطورية ، فقاد الجيوش ، وأرسل البعوث ، وجلس الى العلماء والادباء والشعراء ، واستمع الى الغناء ، وأستمتع بالحياة ، وكل ذلك في اسلوبسائغ ووصف رائع،وتصوير بارع...

— ١ —

العهد الاول

قد ينادي بعضهم باحترام العظماء وتقديس اخبارهم ، والاغضاء عما تعاورهم من ضعف في حياتهم ، وتجاهل ما تكلفوا من الاخطاء فيما رسموا لانفسهم من سياسة او اجتهاد في الادارة ونظم الحكم ...

انهم رجال لا آلهة .. وضعفهم يجب ان يظل مطموراً في الكتب القديمة مخفياً عن الانظار ...

ولست من اصحاب هذا الرأي بالتأكيد فان هذه الاخطاء التي تنسب لعظمائنا ، وهذا الضعف الذي تعاورهم في اثناء الحكم وقبله وبعده ، يجد تجاوباً في نفوسنا ، ويجعل منهم رجالاً لا آلهة ، فلا يسمو واحدهم على الناس الا فيما افضاه لعهده من خير واعمار ، ولا يحلق في الاجواء بحيث لا تدركه الانظار والعقول ...

نريدهم ان يظلوا بيننا نهتز لعبقريتهم ونطرب لاخبارهم ، ولا نجد بأساً فيما نقرأه من اخبار ضعفهم ونزواتهم ، بل لعلنا نجد في هذا الضعف ما يقربهم الى نفوسنا ويجعلهم اقرب الينا مما لو كانوا مثلا اعلى للانسان الكامل ...

على هذا النحو سأكتب قصة « الهوى والشباب في عصر الرشيد »

وفي هذا الجو سيجد القارىء[1] صورة الظلال والوديان والانهر في عاصمة الدولة العباسية ، وسيسمع هدير السواقي وصليل الأقنية وتسجيع البلابل وتغريد الطير ...

كما سيقرأ اخبار الحضارة التي كانت تشع نوراً على الدنيا القديمة ، وانباء العبث واللهو وآلة الشراب التي تتبع كل حضارة اينعت ، وكل عمران يقوم ، وكل جماعة استقرت وبلغت من الترف اقصاه ..!

*

نحن الآن في القرن الثاني للهجرة ، يوم كان المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، وباني بغداد ، يجلس على عرش الخلافة ، وكان المنصور قد غلب على شئون الدولة في عهده ،فلم يقم لوزرائه شان في خلافته ، ولا كان لاحدهم سلطان يستطيع معه ان يستقل بامر من الامور دونه ، فلما كان عهد المهدي تبدلت الحالة في عهده قليلا ، فكان لوزرائه من الشأن والسلطان ما لم يكن لهم به عهد قبلا ، حتى لقد راح المهدي ، يؤاخي بينه وبين وزيره يعقوب بن داود ،وحتى كان

(١) هرون الرشيد بن محمد المهدي وامه الخيزران ، ولد بالري سنة ١٤٥ هجرية ولما شب وترعرع راح ابوه يرشحه للخلافة وولاه مهام الامور وقلده قيادة الجيوش ، وارسله لغزو الروم سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ هجرية ، وفي سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الانبار الى اطراف افريقية، فكان الولاة يرسلون من قبله ، وفي سنة ١٦٦ جعله ابوه ولي العهد بعد الهادي ، ولكن الخيزران امه كانت تفضله على ابنها الاكبر « الهادي » وكانت تسعي مع زوجها المهدي ليقدمه على اخيه ويبايعه في الخلافة قبله ،وحاول المهدي ذلك سنة ١٦٩ فحال الموت دون ذلك .

وبويع الرشيد بالخلافة يوم وفاة اخيه الهادي في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هجرية ١٤ ايلول ٧٨٦م وله من العمر ٢٥ سنة ...

وزيره هذا يعمل في الوزارة والديوان كما لو كان الخليفة نفسه ،وحتى غلب يعقوب وزيره على امره كله [1]

وكذلك ظهرت في عهد المهدي ظاهرة جديـــدة وهي سيطرة النساء على الحكم ، وتسييرهن امور الديوان ... وتدخلهن في شؤون المملكة ، فكانت « الخيزران » زوجه وام ولديه الهادي والرشيد ــ وهما خليفتاه من بعده ــ تستقبل في قصرهـا رجـال الدولة وقواد الجند قبل ان يستقبلهم الخليفة نفسه ...

فلما استوى « الهادي » على عرش الخلافة .. عظم تدخل امه في شؤونه ، فمنعها وهدّد من يزورها في قصرها ، من رجـــال دولته وقواده ، فنقمت عليه ، وقاطعته ، ويقال انها عملت على قتله[2] لما عرفت برغبته في خلع شقيقه هرون عن الخلافة والبيعة لابنه،وكانت تحب هرون حباً مفرطاً ، ولا ترى مثله احداً .

فاذا كان عهد هرون الرشيد فنحن نستقبل عهداً جديداً ، يغلب فيه الوزراء على شؤون الدولة ، فلا يصدر امر إلا عنهم ، ولا ينفذ شيء الا بامرهم ، بعد ان اطلق الرشيد نفسه يدهم في امور الدولة ، ومصائر الامبراطورية ...

ولعل سبب ذلك ان هرون الرشيد تقلد الملك وهو ابن خمس وعشرين سنة ،والشاب في مثل هذا العمر ابعد ما يكون عن متاعب الملك ، ومشاكل الحياة ، واعباء الدولة ، ثم انه في الوقت نفسه كان يثق بيحيى بن خالد ثقة تامة ، ويذكر انه لولاه ما وصل الى الخلافة ،

---

(١) الوزراء والكتاب ..

(٢) نشوء الدولة العباسية : لمؤلف هذا الكتاب وسيطبع قريباً .

ولولا نصيحته له لنزعها عن نفسه ، وخلعها على ابن شقيقه ، وكان ايضاً يخاطب يحيى بالابوة ويناديه « يا ابي » ، ويعلم ان مثله اهل للثقة ، فلما تقلد الخلافة دعا اليه يحي بن خالد فقال له :

ـ يا أبة ، انت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك امر الرعية ، واخرجته من عنقي اليك ، فأحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، واسقط من رأيت ، فاني غير ناظر معك في شيء ...

وكان ذلك كذلك فغلب يحي وابناه جعفر والفضل على امور الدولة كلها .

ماضيات الايام

وينظر الرشيد الى هذه الرقعة الوسيعة من الارض التي صار اليه الحكم عليها ، فاذا بعضها قد خرج عن سلطانه ، ففي الاندلس دولة اموية جديدة، وزعيم عربي حازم قدير ، وفي افريقية اضطراب شامل وقلق ظاهر ، وسلطان العباسيين ما يطوّف بهذه البلاد إلا غراراً، وفي امصار اخرى من الامبراطورية مثل ذلك من الاضطراب والقلق وعدم الاستقرار ، فيمضي به الفكر الى هذه الماضيات من الاعوام يوم كان الاسلام يغمر الارض من الشرق الى المغرب ، ويوم كانت الوحدة القومية تلزم الجميع ان يكونوا يداً واحدة وصفاً واحداً ..

وليس ما جرى في هذه الماضيات من الزمن ، التي تقطعت بين عهده ، وظهور رسول الله فوفاته سنة ٦٣٢ ، بالقليل الضئيل ، مئة

وخمسون سنة من الفتوحات والتعمير والاعمار في كل موطن من مواطن العالم القديم ، ايام جميلة عذبة كان العرب فيها صفاً واحداً وصوتا واحداً ينقلون الى العالم القديم بفتوحاتهم ورحابة صدرهم وعدلهم مثلاً عليا جديدة، وحضارة رائعة ، وحكما وطيد الاركان ثابت السلطان ..

كان هرون ينظر الى هذه الاحداث الماضية نظرة فيها شيء من الرقة لقربه منها ، وبعدها عنا ، ولكنها كانت الى ذلك في نظره مليئة بروعة الزمن وغابرات الماضي ...

فاذا راح يعود بالفكر الى ماضيات الاعوام ترآءى له كأنما هو يشهدخروج هذه القبائل من ارض الوحي ومواطن الالهام ، وابصر وكأنه فيحلم من الاحلام، مشهداً عجباً،جماعات من المشاة والركبان تحاول استباق الريح ما يلويها شيء ولا تردها قوة، سيوف مشهورة، والوية تلاعب الهواء ، خيالات بيضاء تهزج وتكبر، وتندفع كالبرق فما يطيق الاعداء امامها وقوفاً ، فيولون الادبار ، كاسفاً بالهم، خشّعاً من الذل ابصارهم ، ما يكاد واحدهم يلتقي بصاحبه حتى يواري وجهه خجلاً من سوء ما حلّ بهم ... كذلك كان شأن هذه القبائل العربية البدوية حين أطبقت على العالم المعروف في عهدها بقوة ما رأى التاريخ مثلها قبل اليوم ...

ولقد ولت الكتائب العربية وجهها في اول الامر شطر الانسباء الساميين من ابناء فلسطين ، وما هي الا الايام تساير الشمس حتى استقبلت القدس ابناء اسماعيل ، وشهدت مدينة الهيكل اولئك الانسباء الاشداء ، الركع السجد مصلين ، وقد ولوا وجوههم شطر

المسجد الحرام ، يفعلون ذلك اين ما كانوا ، واين ما ساروا ...

ثم تولت الكتائب عنها الى سواها ، فمشت الى سورية ، ثم الى آسيا ... لقد كان من الصعب على الخيل ان تأخذ لنفسهـــا بعض الراحة ، وكان مستحيلاً عليها ان تقف ولو قليلا ليبرد ما علا جباهها من النصب ومشقات الزحف ، لقد كان فارسها ملحاً شديد النفرة ما يعرف تعباً ولا نصباً ، وانه ليثيرها ويدفعها الى الجري ، فاذا بها تنشط من عقالها، واذا هي تعدو وكانها (البراق) في سرعتها وجريها..

وتضطرب ارض آسيا من عدو الكتائب العربية فوقها، لقد جاء دورها ، وقديماً ارسلت كتائبها فملأت العالم غزواً وفتحاً، ان السيف يسير مشهراً فوق ارضها ، من بلد الى بلد ، ومن جبل الى جبل ، ومن عين الى نهر ، وان سنابك الخيل العربية لتهز اليوم تلك الارض التي قامت عليها أشور وبابل والحضارات القديمة في ما بين النهرين .. اما مملكة الاكاسرة فقد انهارت بضربة سيف واحدة ، وان كبّارها من ملوك وامراء وقواد ينفرون مذعورين هاربين .

ويتجه الزحف العربي بعد ذلك الى افريقيا ، فتسقط مصر لقمة سائغة ، ثم ما حولها من بلاد ، فما خلفها من جماعات فما بعد ذلك من مواطن وممالك، واذا العرب بعد سنوات قليلة يقفون امام المحيط الاطلنتيكي .

ويطلق « طارق » بصره الى ما وراء البحر ، فاذا باسبانيا تنام هادئة على مقربة منه، لا يفصل بينه وبينها غير القليل من المـــاء ، فيقتحم البحر بخيله وجنده فاذا اشرف على الساحل وقف في رجاله خطيباً فقال :

« ايها الناس اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه واسلحته واقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم ، وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امراً ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب عن رعبها عنكم الجرأة عليكم ، فارفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت ، واني لم احذركم امراً انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة ارخص متاعاً فيها النفوس ، ابدأ بنفسي ، واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلاً استمتعتم بالارفه الالذ طويلاً ، فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه باوفى من حظي .

« وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة .

« ايها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، ان حملت فاحملوا وان وقفت قفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامد الى طاغيتهم حتى اخالطه فاقتله ، فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا .

«هذا واني حامل حتى اغشاه فاحملوا بحملتي ! »

فاذا انتهى طارق من خطابه فاضت نفوس رجاله اقداماً وثقة، وحمل .. فحملوا حملة رجل واحد ، فمزقوا امامهم كتائب العدو ، وحطموا روح الخصوم فهلك من هلـك وفر من فر ، وتم النصر للعرب الفاتحين ..

هرون الرشيد يحاور نفسه

وكذلك انكفأ هرون الى نفسه يستعرض هذه الانتصارات الباهرة التي مكنتها الاتحاد ، وخلقتها الوحدة ، وامضاهـا العزم ، واجراها الاتفاق ، فتعلو جبينه امارات الحسرة،أن خلقه الله في عصر تقطعت فيه وحدة المسلمين التي بها غلبوا العالم، واستقام لهم ملك من سبقهم من الملوك ودول الارض .

لقد اخذت بعض الاطراف البعيدة في الامبراطورية بالانتقاض على العـاصمة ، كالاندلس وبلاد المغرب ، ومن يدري فقد يتبعها سواها وغيرها ، والذئب انما يصيب من الغنم الشاردة ، فلا تعجب ان يحاور هرون نفسه بما تقدم فيه القول ، ولا يلتوي عليك القصد حين تجده مفكراً في مـاضيات الايام ، وفي تلك الاحداث المفجعة التي احدثت في الاسلام ثغرة ما يزال اثرها بيّن المعالم، خطير المصاير..

ومن الحق ان يفكر الخليفة في مصاير الملك الواسع الذي انتهى اليه ،وان يمعن في تفكيره ويغرق في البحث لان مصاير الملك في عهده قد يكون معلقاً بماضيه ، وقد يكون مرتبطاً كل الارتباط باحداث سلفت ، ووقائع غبرت ، ولعله ان وفق الى الرأي الصواب في كل هذا مهد لنفسه ملكاً هيناً ، وترك من بعده لحفدته ، امبراطورية

ثابتة الاطراف قوية موحدة ...

ويذكر هرون نشوء الاسلام وانقضاء الوحي ، وانتقال النبي الى الملأ الاعلى، وكيف ثارت الخواطر في سبيل الخلافة وكيف تمزقت الوحدة العربية في سبيل الملك ، وما تبع ذلك من فتن ، وما احدثت هذه الفتن في النفوس من اثر بغيض ، ويذكر مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، ومقتل عثمان بن عفان من بعده ، وكيف اجمع اهل الحجاز على بيعة علي ، وكيف ثارت الشام وما جاورها عليه ، وكيف اندفعت الاحقاد في طريقه ، ومشت الفتن في سبيله ، وما كان من تدخل عائشة زوج النبي في هذه الفتنة ، وما تبع ذلك من تقسم القبائل ، وتمزق الشمل ، ومقتل علي وقيام معاوية ، ثم مقتل الحسين بن علي ، فانقسام العالم الاسلامي الى شطرين شطر ينادي بالخلافة لابناء علي وآخر يرضى بالامر الواقع ، ويبايع بالخلافة للامام القائم .

وتسير الايام في سبيلها وشيعة علي تعمل سراً وفي الخفاء ، تأييداً لمبدأها ، وتعزيزاً لفكرتها، والخلفاء الامويون يطاردون رجالها، ويلاحقون انصارها ، حتى اذنت شمسهم بمغيب ،وظهرت الدعوة في خراسان للرضا من آل البيت ، واتحد العلويون والعباسيون على محاربة الامويين ، فاذا مكنهم الله منهم في معركة(الزاب)استقل العباسيون بالامر وراحوا يفعلون بالعلويين ما كان الامويون يفعلونه بهم ، واذا آل علي بين قتيل وطريد وشهيد ...

واذا العباسيون يعتمدون في تثبيت امرهم ، وقيام دولتهم لا على العرب كما كان يفعل الامويون ، ولا على المسلمين كافة كما كان

يفعل ابو بكر وعمر بن الخطاب من الخلفاء الراشدين ، ولكن على عصبة صغيرة من المسلمين، على اهل خراسان الذين نصروهم على الامويين وغير الامويين من العرب ..

ويقوم ابو العباس كبير العباسيين بالامر وهو الخليفة الاول ، فيبطش بمن بقي من الامويين في عهده ، فيهلك منهم من يهلك ، وينجو من يمد الله في عمره ، ويستقيم الحكم للعباسيين ولابنائهم وحفدتهم ، حتى ينتظم الامر لهرون الرشيد ، وهو اشهر خلفاء بني العباس على الاطلاق ...

هرون في صغره

ولقد ولد هرون في « الري » كما قدمنا ، وشبّ في العراق وفي القصر ، فتعرف الى الخلفاء السابقين من العباسيين إلا كبيرهم « ابو العباس » ، ولكن من قاموا على تربيته وتأديبه علموه احترامه وأجلاله ، وزاد مربوه ندى ، فلقنوه مبادىء السياسة العباسية التي اشار اليها ابو العباس في معرض حديث له يوم قال :

ـ « هذا عصر الله فهيئوا انفسكم له ، لاني معتزم ان انشر الدم فيه » .

وفي هذه الجملة بعض التورية لان اهراق الدم عند العرب ليس يعني حتماً سفك الدماء والبطش بالناس ، وانما يعني ايضاً حب المرء للضيوف يذبح لهم ما عنده من ماشية وانعام زيادة في اكرامهم واغراقاً منه في السماح وحب الضيافة ، ومن المؤسف ان يتولى الخطأ بعض كتّاب الغرب امثال « فيكتور بيرار » مثلاً، فيذهبون

المذاهب في تأويل هذه الجملة واستقرائها... يدللون بذلك على حب هذا الخليفة لسفك الدماء والبطش ...

وكثيراً ما كان يقف هرون وهو صغير امام الخليفة المنصور يداعبه ويضاحكه ويمازحه، وهرون طفل صغير، لا يتفهم من المداعبة كبير معنى، ولا تتحمل ذهنيته غير الأمر المنظور، فيروح يمعن النظر في ملابس الخليفة وزينته، ويود لو يكون له مثلها يتيه بها على اترابه ويسير فيها مرحاً فخوراً ...

ولقد كان من المستحيل في ذلك الوقت ان يعتقد المرء بان هرون واصل الى الخلافة حتماً، وذلك لما كان يعتور الحالة السياسية من اضطراب وقلق... خصوصاً ما يتعلق منها بأولياء العهد، والواقع ان الخلافة كانت يجب ان تصير وفاقاً للتقاليد والسنة الى من تجتمع عليه كلمة المسلمين، فصارت في عهد الأمويين الى الذي يرتضيه الخليفة القائم بالأمر من ولده وبنيه ... بعد ان يأخذ له بيعة اسمية من جمهرة رجال البلاط وقواد الجيش والفقهاء، وقد يقع هوى الخليفة أحياناً على أصغر بنيه، او قد يختار احدهم، فيروح أشقاؤه يزاحمونه عليها، ويكيدون له المكائد، ويستفحل الخلاف فيتصل بالجند وغير الجند وتقع الثورة الأهلية، وفي تاريخ الاسلام الكثير من امثال هذه الحوادث ...

وكانت الخيزران، والدة الرشيد، من اصحاب الذكاء والفطنة، وقد ولدت من المهدي، الهادي وهرون، ولكنها كانت على الثاني أعطف وهو الى قلبها أقرب... وكان لهذا العطف مصاير بغيضة في التاريخ العباسي ...

ولما ولي المهدي والد هرون الخلافة ، كان هرون في العاشرة من عمره ، وفي مثل هذا العمر يخرج الفتى الناشيء من الحرم ويسلم الى المؤدبين ، وقد وفق هرون في مؤدبيه كل التوفيق ، وأشهرهم يحيى ابن خالد البرمكي... الذي كان موظفاً كبيراً في دار الخلافة ، غزير العلم حسن الدراية ، جم الخلق ، رضي النفس ...

البرامكة

وينسب البرامكة الى جدهم برمك ، وهو من مجرس بلخ ، ومن كبار قومها واشرافهم ، فلما اشرفت الدعوة العباسية على خراسان كان خالد بن برمك من اكبر دعاتها وانصارها ... وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر في صدر الدولة ، حتى استوزره ابو العباس اول خلفاء العباسيين بعد هلاك ابي سلمه حفص ابن سليمان الخلال ، فكان مدبر امره غير مرة ... غير انه لم يكن يسمى وزيراً ، واستمر على ذلك حياة ابي العباس ، فلما ولي ابوجعفر المنصور الخلافة أبقى خالداً في منصبه مدة... ثم ولاه فارس فالموصل حتى توفي سنة ١٦٣ هجرية ...

ويقول « الفخري » في وصفه : كان خالد من رجال الدولة العباسية ، فاضلاً جليلاً ، كريماً حازماً يقظاً ، استوزره ابو العباس وخفّ على قلبه ، وقيل ان ابا العباس قال له يوماً :

— يا خالد ما رضيت حتى استخدمتني .

ففزع خالد وقال :

— كيف يا امير المؤمنين ، وانا عبدك وخادمك ..

فضحك ابو العباس وقال : ان « ريطة » ابنتي تنام مع ابنتك، في مكان واحد ، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما ، فأرده عليهما ...

فقبل خالد يده وقال : مولى يكتسب الاجر في عبده وامته .

اما يحيى بن خالد ـ ابنه ـ فكان واحد الدنيا علما وادبا وفضلاً ونبلاً وجودا ، وكان مولده سنة ١٢٠ رباه ابوه فاحسن تربيته ، ونشأ في كنف الدولة وفي اول نشأتها وانبعاثها ، واختاره المنصور لولاية ازربيجان سنة ١٥٨ هجرية ، وقال له :

ـ « قد أردتك لامر من الامور واخترتك لثغر من الثغور »

وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة ، فسار في ولايته سيرة ابيه واستمر بها حتى مات المنصور .

وفي سنة (١٦٢) هجرية اختاره المهدي ليكون كاتباً ومربياً لابنه هرون ، فكان معه يدبر امره ويعمل على تثقيفه وتعليمه ، وهرون لا يناديه إلا (بيا ابي) .. لان زوجة يحيى ام الفضل ارضعت هرون بلبان ابنها الفضل وأرضعت ،(الخيزران)ام هرون الفضل بلبان ابنها هرون .

وظهر تأثير يحيى على تلميذه قويا بارزاً ، وكان الخليفة نفسه قد شدّد في امر تثقيف ولده ، وامر بان يطيع الامير الصغير مؤدبه ، وان لا يعصى له امراً ... فاغتنم يحيى هذه الفرصة ، وصرف في تأديب الامير وتثقيفه خيراً كثيراً ، وليس يقع علمنا في مثل اليقين على الاطوار التي تمر على امير عربي مثلاً ... وهو في سن الدراسة وبين مؤدبيه واساتذته ، لقد قال محمد بن ابي زيد في رسالة عن التأديب والتعليم :

« انه ليس يصح من الاستاذ حين يرى الحاجة ملحة الى معاقبة تلميذه ان يعاقبه باكثر من اربعة اسواط »..

وقد يذهب البعض من الذين قرأوا هذه الرسالة ... الى ان هرون الامير لا بد وان نال نصيبه من هذه السياط ، وهو ما نريد ان يطمئن له قلب القارىء فنقول : « ان شيئاً من هذا لم يقع لهرون ، ذلك انه كان من عادة العرب حين يخطىء الفتى من كبّار قومه انه يعاقب غيره بعقابه على ملأ منه » ...

وفي هذه الظاهرة بعض الطرافة ، لان النفوس الحرة تأبى الضيم ولا تستنيم له ، وهي ان احست بانه واقع على سواها لذنب جنته وخطأ ارتكبته ، كان له ابعد الاثر في نفسها ... فلا تعمد الى الوقوع في مثله بعد يومها ...

وقد حدث لهرون وهو خليفة ، ان امر بضرب احد خدمه مئة سوط لانه اساء ذكر الخلفاء السابقين ، وقال هرون يبرر هذا العقاب:

« لقد امرت بتأديب هذا الخادم محافظة مني على جلال العرش وحرمته ، وعلى هذه العلاقات التي تربط الملوك بعضهم ببعض » .

وليس في وسع دوائر الشرطة في عهدنا الحاضر ان تبلغ من الاعتدال في عقوباتها ما بلغ هرون في عقابه هذا ...

وحملت هذه التربية البرمكية الفارسية ثمارها ، فظهر على هرون وهو ما يزال ناشئاً ، صدق النظر وسعة المعرفة ، وحسن تصريف الامور..

هرون في الحروب

فلما بلغ هرون اشده ارسله المهدي لحرب الروم سنة ١٦٣ ،

وكان المهدي قد خرج بنفسه الى هذه الحرب ، فلما كان غير بعيد من «حلب» ندب هرون لغزو الروم في قوة من الجند ، وضمّ اليه يحيى البرمكي وقال يتحدث الى يحيى:

« اني قد تصفحت ابناء شيعتي واهل دولتي واخترت منهم رجلاً لهرون ابني اضمه اليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقع عليك اختياري، ورأيتك اولى به اذ كنت مؤدبه وخاصته وقد وليتك كتابته وامر عسكره . »

ويجب ان لا ننسى ما غمر هرون من هزة الفرح لما قلده والده الامر ، وكم بلغ به الزهو لما تمكن من اقتحام حصن (سالوما) بعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوماً ، ومـــا فتح اهله الابواب ، وطلبوا الامان إلا بعد ان نصب على حصنهم المنجنيق ، واظهر انه غير مرتد عن حصنهم او يهلك دونه ، وكان الفتح على شروط ألا يقتل اهلها ، ولا يرحّلوا ولا يفرّق بينهم ، فاعطوا ذلك ووفي لهم هرون بما وعد..

ولقد اظهر هرون في معاملة اهل الحصن عطفا ورأفة عظيمين.. وزاد ندى فأمر بان يخرج الى بغداد منهم من اراد ، ينزلهـــا آمناً مطمئناً ، وهي ظاهرة يجب ان تذكر بالفخر للخلفاء المسلمين عامة ، وهرون الرشيد خاصة ...

وسر الخليفة سروراً عظيماً بانتصار الامير الفتى ، فولاه شمال افريقيا وازربيجان وارمينيا ، وامـــر يحيى البرمكي ان يتولى ذلك معه ، فكانت ليحيى اعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها..

ودخل جيش هرون العاصمة ، فاستقبله اهلها بالاهازيج والاغاريد والتكبير وضمت الخيزران فتاهـا الصغير ــ وكان في العشرين من

العمر – الى صدرها وتنهدت وهي تضمه وتقبله ، فقد كانت تحبه حباً جماً ، وكانت تخشى عليه غـدرات الزمن ، وتقلب الايام ، وتريده خليفة عظيماً لا يشاركه احد في ملكه ولا ينزعه احد منه.

وفي سنة ١٦٥ نرى هرون يسير علـى رأس جيش كبير لا يقل عن مائة الف جندي لغزو الروم ، وقد وفق هرون في هذه الغزوة كما وفق في الماضية ، فمضى عـلى رأس جنده حتى وصل الى اسوار القسطنطينية (٧٨٢ م) ووقف الاسلام مرة اخرى امام ابواب اوروبا الوسطى ، فيعصمها البحر ، ويرده عـن هذه القلعة الحصينة عاصمة البيزنطيين ، ولكن الغزوة كانت موفقة ، وقد اجبر هرون الملكة (ايريني) وهي القيّمة على ولدها الصغير قسطنطين السادس ان تدفع الجزية وقدرها ... ٩٠ دينـار ، وان تقوم حكومة الامبراطورية باعاشة الجيش العربي في حله وترحاله ، وان تقيم الادلاء والاسواق في طريق الجيش حتى الحدود العربية ، لأن هرون كان قد دخل مدخلاً صعباً ، وطرق بلاداً ما يعرفهـا احد من افراد جنده ، وقد ارضى المهدي انتصاره هذا فسماه الرشيد ، وجعـله ولي عهده بعد ابنه الاكبر ، وكانت هذه هي المرة الرابعة التي وصلت فيها قوة عربية الى اسوار القسطنطينية[1] .

وليس يهمنا التبسط في حياة هرون عهد (الهادي) شقيقه الاكبر ، ولا ما يذهب اليه بعض المؤرخين من اعتزام المهدي في اواخر ايامه نزع البيعة عن الهادي وتقليدها هرون الرشيد ، وذلك بتأثير الخيزران زوجه والحاحهـا عليه ، فقد وصفنا كل هذا في كتابنا

(١) وصل العرب في ايام الامويين ثلاث مرات الى القسطنطينية .

(نشوء الدولة العباسية)[1].

وكذلك تبسطنا في كتابنا المذكور بهذا الخلاف الذي نشب بين الهادي وامه وكيف حظر عليها التدخل في شؤون الدولة ، ومقاطعتها اياه ، وانحرافها عنه ، وعرضنا في الوقت نفسه لما راح يحاوله الهادي من نزع الرشيد عن ولاية العهد ، وعقدها لابنه ، وكيف قام يحيى بن خالد البرمكي ، يزود عن الرشيد ويدافع عنه ، ويحارب لاجله حتى زُج في السجن بسببه ، كما جلونا حديث هذه الشائعة التي ذكرها ابن الاثير وغيره من المؤرخين حول اعتزام الهادي قتل يحيى بن خالد ، وعقد البيعة لابنه ، فاسرعت الخيزران الى جواريها وامرتهن بمسايرة ابنها حتى اذا غلبه النوم وضعن المساند على وجهه وجلسن عليها ...

يكفي ان نقول ان الهادي لم يوفق الى ما كان يريده من نزع البيعة التي عقدها المهدي لاخيه ، وتوفي قبل ذلك ، فبويع الرشيد بالخلافة ، في الليلة التي ولد له فيها ابنه عبدالله المأمون ، ومات فيها شقيقه الهادي ، فكانت ليلة عجيبة .

مات فيها خليفة ، وجلس خليفة ، وولد فيها خليفة .

---

(١) نشوء الدولة العباسية : للمؤلف سيصار الى نشره قريباً ..

— ٢ —

بغداد عاصمة الدنيا

بغداد

نعمت بغداد في الخمسين سنة ٧٦٣ — ٨١٣ م التي تقطعت بين تأسيسها وعهد المأمون باعظم عهودها ، واجمل ايامهـــا ، وادهش فتوحاتها في التجارة والعمران والثقافة ومختلف الوان الحضارة .

وفي هذه الفترة انتقلت بغداد من مدينة صغيرة مدورة محدودة السكان ، ضيقة المساحة ، ضعيفة العمران لتكون البلدة الاولى في العالم القديم ، مع غناء وافر ، وتجارة واسعة ، وسكان يبلغون المليونين من البشر من مختلف الاجناس والشعوب ...

وكان سبب هذا الازدهار مركزها الذي توسط الشرق والغرب والحركة التجارية الواسعة التي عمت الامبراطورية بعد هذه الفتوحات التي شغلت الناس في العهد الاموي ، لان الاستقرار اعظم مساعد على نهضة التجارة وازدياد العمران واستبحار الحضارة .

ومن المعروف ان الصناعات والفنون لا تزدهر وتنمو الا عند استقرار الجماعات والدول ، وعندئذ يترك الجندي مكانه ليحل محله

الاداري والمالي والتاجر ، والمسافر والعـالم والاديب والشاعر والصانع والفنان .

والحضارة الاسلامية التي حملت ثمارهـا في عهد العباسيين عهد الاستقرار السياسي والتنظيم الصناعي والتجاري والاداري ، كانت اروع الحضارات الاسلامية واجملها وابعدها تأثيراً ، وابقاها على الايام ، فاختراع الورق مثلاً الذي انتقل من الصين الى بغداد في اول تأسيسها كان من الاسباب الفعالة في ازدهـار الحركة الادبية والعلمية والفلسفية ، فكثر التدوين في الدولة العباسية كثرة مدهشة ، واخذ العلماء والفقهاء والفلاسفة يؤلفون الكتب ، ويترجمون الآثار العلمية القديمة ، فاصبحت بغداد بعد عهد المنصور تصنع الادب عـلى افضل ما يكون واشرف ما يكون .

ولقد دخل العلم القديم البلاد الاسلامية من طرق مختلفة تبسطنا في وصفها وبحثها في كتابنا (الحضارة العربية في العهد الاموي) ... ساعد عـلى نشره اليهود في العراق والنسطوريون المسيحيون فيما بين النهرين واليعاقبة المسيحيون في دمشق ، واهل فارس من اتبـاع (زروسترا) وعبدة الاوثان الذين كانوا يسكنون (حران) في شمالي العراق .

اليهود في بغداد

ولم يكن اليهود اهل علم يذكر في هذا العهد ، ولا كان محصولهم من الثقافة اليونانية بارزاً محسوساً ، ولكن تأسيس العاصمة العباسية في العراق انعشهم ، وكانت لهم مدارس خاصة بالقرب من بغداد

العاصمة في (سورا) وغيرها حيث صار وضع التلمود بصورته النهائية، فكان لوضعه الاثر البعيد بين يهود العالم كله ، وساعد كثيراً على دراسة اليهودية القديمة والشريعة الموسوية ..

وساعد تأسيس بغداد اليهود ، فنزلوها وكان لهم حي خاص ، واخذوا مع الايام يتأثرون العرب في عاداتهم ، وكانوا في اول الامر يتكلمون الارامية ويكتبون فيها ، فلما كثر اتصالهم بالمسلمين تعلموا العربية وتركوا الارامية ، كما تناسوا العبرية لا يتدارسها منهم غير علماء الدين دون غيرهم .

المسيحيون في بغداد

اما النسطوريون فان استعمال العربية بدلاً من الارامية كلغة العلم والتجارة قضى على نفوذهم وتأثيرهم ، ولكنهم كانوا ما في ذلك شك ولا ريب صلة موفقة بين المسلمين والعلم القديم ، وكانوا يسيطرون على الطب والحكمة في ازهى العصور الاسلامية ، وكل اطباء البلاط العباسي كانوا منهم .

وكانت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين اول تأسيس بغداد على احسن ما يرام ، فكان المسلمون من اهل الترف والعبث يزورون الحانات المسيحية والاديرة لتنــاول الاشربة التي برعوا في صنعها واشتهر النساطرة دون غيرهم في تجويدها ..

واما اليعاقبة فقد تقبلوا الحكم السياسي الاسلامي قبولاً حسناً ، وطلبوا من المنصور اختيــار بطريك لهم ، فأمرهم باختيار رجل يرتضونه ، فاختاروا شخصاً منهم فوافق على تعيينه .

وكذلك ساعد بقايا اتباع (زروسترا) الفارسي العرب المسلمين على الاتصال بالحضارات القديمة ، وفعل اهل حران مثلهم ، ولكن اكثرهم تقبل الاسلام بعد ذلك لما انكر المأمون عليهم وثنيتهم التي لا تتفق مع العلم والمنطق في كثير ولا قليل ..

وكذلك نرى ان الجو الذي كانت تحيا فيه بغداد اول عهدها خصوصاً في ايام الرشيد ، كان جواً علمياً ثقافياً من الطراز الاول ، وانـــه قد انتهت الى بغداد جميع اصول الثقافة الاغريقية القديمة كما انتهى اليها في الوقت نفسه السيطرة على الحركة التجارية في العالم القديم كله ، فقد كانت محصولات العراق وفارس ، وهي محصولات رائعة حسنة مفيدة لا يستغني عنهـا الكثيرون ، تنتقل من بغداد الى غيرها من الاقطار والامصار التي حولهـا ، واصبحت اللغة العربية لغة العلم والتجارة معاً .

وكانت صادرات الامبراطورية العباسية منوعة عديدة ، فهناك الاقمشة والمرايا المصنوعة من المعدن ، الى الورق الذي كان يصنع في بغداد ، الى صناعة الجواهر والحلى التي كانت بغداد تنافس بها سواها ، الى مختلف انواع الحراير ، الى صنع الساعات ، وتجليد الكتب ، ثم صناعة العطور وغير ذلك مما لا فائدة من تعداده ، وكله كان يدل على حضارة رائعة ، وصناعة بديعة ، وتجارة واسعة .

الامن والسلام

من المقرر طبعاً ان مثل هذه الصناعات ما كانت لتظهر ، وتحمل هذه الثمار الجميلة ، لولا ما كانت تنعم به الامبراطورية العباسية من

استقرار سياسي ونظم ادارية راقية ، وعدل موفور ، وجند قوي يقوم على حراسة الامن والاطراف والثغور المختلفة .

وكان عدد الجيش في العراق ذلك العهد لا يقل عن مائة وخمسة وعشرين الفاً وفي عهد هرون صار تحصين الحدود السورية الرومانية ، واقامة القلاع والمعسكرات ، وكذلك عُني العباسيون بالامور البحرية،واخذ عنهم الاوروبيون اسم (اميرال) و(ارسنال)وغيرهما.

اما الحالة الاخلاقية في بغداد فكانت تسادق مثلها من المدن الكبرى ، ولكن ادارة الشرطة كانت منظمة ، وكان لدى الشرطة في عهد الرشيد عيون في مختلف احياء العاصمة لاقتفاء اثار المجرمين واللصوص ؛ والعيارين... وكانت طرقات العاصمة نظيفة صحية ترش بالماء دائماً وابداً .

وكانت المعاملات التجارية تسير سيراً حسناً ، والعلاقات المالية والصيرفية بين التجار مستقرة منتظمة ، يقرض بعضهم بعضاً ، ويكتبون في ذلك صكوكاً يصار الى تسديدها في مواعيدها ..

وفي ايام الرشيد بلغت بغداد مجدها ، نشطت فيها الحركات العلمية والادبية والتجارية والصناعية ، وكثرت الثروة ، وزاد المال بين يدي الناس زيادة عظيمة ..

العلم والحضارة

كما كثرت المدارس ونشطت حركة التعليم، وكانت حرية الرأي شيئاً جميلاً مقرراً ، لا يصار الى وقفها ولا الى انتقادها .

وكثر الوراقون الذين كانوا يتاجرون بالكتب وينسخون الآثار

المختلفة ... وكان لهم سوق خاص يسمى (سوق الوراقين) ... وكان عددهم في هذا السوق لا يقل عن مائة ...

وعظمت العاصمة في عهد الرشيد واتسعت العمارة فيها اتساعاً عظيماً، فما كفى اغنياؤها ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني، حتى راحوا يتوسعون ويتبسطون، فسكنوا الجانب الشرقي المعروف بالرصافة، فبنوا فيه القصور الرفيعة، والمنازل الرحبة المزخرفة، وغرسوا في جنائهم الاشجار والرياحين التي يجري من تحتها الماء، واتخذوا لهم الاسواق والمرافق والحمامات والجوامع، وتوجهت عناية الدولة الى اقامة المكاتب لطلبة العلم، ومنازل الجند، والمستشفيات للمرضى ومجالس القضاة، وغرف الشرطة ودور الحكومة حتى اصبحت بغداد بلداً عظيماً يعج بالناس ويزدحم بالغادين والمسافرين ..

ولعل اهم ما حدث في بغداد عهد الرشيد كان تجديد بناء مسجد المنصور في المدينة المستديرة وتوسيع قصر الخلد، وبناء جعفر البرمكي قصراً جديداً له على دجلة، كان يسمى الجعفرية، ثم اهداه للمأمون بعد ذلك ...

وكان هذا الاتساع من العظمة بحيث يدعو الى الدهشة حتى راح الامام الشافعي يسأل تلميذه يونس فيقول له :

ـ يا يونس ... دخلت بغداد ؟

فيقول التلميذ : لا .

فيقول له الشافعي : يا يونس ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس..

ولما زاد المال بين ايدي الناس، توسعوا في التجارة وألوان الحرف واصبحت بغداد مركز العالم التجاري في ذلك العهد، فكانت

مختلف الصناعات تأتيها من المشرق والغرب ، كما يصدر عنها مثلها الى المشرق والمغرب ..

والظاهر ان اسواقها كانت ابداً تعج بالناس ... فقد ذكر صاحب الاغاني : ان اهل النعمة فيها كانوا يمشون في اسواقها بالغلمان والحاشية الى عدد يتوهمه السامع بعيداً عن الصدق ...

وحدثنا ابن خلكان عن امير ركب في مائة فارس واحدق به الغلمان حتى ملأوا الطريق وسدوا السبيل على الناس ، وكلهم في ابهى زي واجمل لباس ، وكان هذا المنظر شيئاً عادياً يراه البغدادي في كل يوم تقريباً غير مرة واحدة .

وظهر هذا الترف والعمران على اشده في ايام الرشيد ، الذي كان فريداً في كثرة البذل والعطاء ، ولقد بلغ من الاسراف – كما يقول صاحب الخميس – ما لم يبلغه الاكاسرة ولا القياصرة قبله في تبذيرهم المفرط ، فكان ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم[١] ، وربما اتخذ الطباخون له اكثر من ثلاثين لوناً من الطعام[٢] .

وقد حدث ابو يوسف القاضي : انه لما بنى الرشيد بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يتخذ مثلها في الاسلام[٣] ... وجعل الهبات فيها على الناس غير محصورة ، حتى انه كان يهب اواني الذهب مملوءة بالفضة ، واواني الفضة مملوءة بالذهب ، ونوافج المسك وقطع العنبر ، وبلغ جملة المنفوق من بيت المال خمسة وخمسين الف الف درهم ،

---

(١) المسعودي ..

(٢) المستطرف للابشيهي ..

(٣) العقد الفريد والسيوطي ..

وامر بزبيدة ان تُجلى في درع من الدرّ ، لم يقدر احد على تقويمه بثمن ، وغالى في تزيينها بالحلى حتى انها ما قدرت على المشي لكثرة ما كان عليها من الجوهر ، وامر بان يتخذ الطباخون من ألوان الطعام والحلوى مـــا لم يقدر احد على احصائه ، فيقال ان الحطب الذي احرقوه حمل اليهم على خمسمائة بغل ، وهذا وصف مهما قيل في كونه شيئاً غريباً عجيباً ، فان فيه بعض الحقيقة على كل حال ..

وانتقل هذا الترف من الخليفة الى وزرائه وعماله ، واهل الثراء في عاصمته ، فكانت بغداد والحـــالة هذه تعج بحياة رافهة وارفة ، واهلها يخطرون في الفضة والذهب الى ابعد حد ..

بغداد وسكانها

كانت بغداد في هذا العهد الذي نؤرخ له دنيا حفلت بالشعوب المختلفة من ذوي الاديان المتباينة واللغات المتنوعة ، وفي طليعتهم العرب ارباب الخلافة ، والدين ، والوزارة والادارة ...

والفرس اصحاب الوزارة والادارة ، والجيش والولايات ، ورجال الحساب والتنجيم ، والعلوم ، والصناعات على اختلاف انواعها.

ثم الترك من الجنود المستأجرة .

وهناك الأراميون نقلة العلوم واساتذة المنطق والفلسفة والطب ، والهنود اصحاب الطب ايضاً والحساب والتنجيم ، واليهود قـــادة المتاجر ، وارباب بيوت الصرف ، والسنديون للصناعات المتنوعة ولا سيما الطبخ وصناعة الأحذية ، والزنج للخدمة والملاهي ، والزط للسؤال والتلصص .

وهناك الجواري ، من جميع هذه العناصر الاجنبية عن العرب المتغلغلات في التأثير حتى في بلاط الخليفة ...

هذا من حيث الأجناس ، اما الاديان في بغداد فلم تكن اقل تنوعاً واختلافاً ، حتى المجوس وعبدة الأوثان كانوا من سكانها ونزلائها ...

كل هذه العناصر كانت تتعايش في بغداد فتتعاون وتتنافس ، وتتصارع وتتطاحن ، وتتزاوج ، فينشأ عن كل ذلك امتزاج بل امتزاجات منوعة ،تصبغ هذه الثقافة المتسعة المظاهر التي ندعوها بالثقافة العباسية .

وكثيراً ما كان يحدث العراك بين هذه العناصر المتباينة ، لاسيما بين العرب والفرس ، وهو العراك الذي عرف بالحركة الشعوبية وكانت في اول امرها لا ترمي الى ابعد من المساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، فتطالب بالحقوق التي خوّلها اياها القرآن ، وأعطاها لها الاسلام ، ولكن التشامخ العربي كان يدفعها الى العمل لانتقاص العرب والطعن في العرب .

وسهل العباسيون بسياستهم مجال العمل للفرس ، فاندفعوا لا يقفون عند حد في اقرار تأثيرهم في الحكم والادارة،فلم يقف العرب موقف المتفرج الساكت، فنشأ العراك الشديد بين عنصري المملكة الكبيرين ، وهو عراك لا نبالغ اذا قلنا انه أقوى عراك داخلي عرفته الدولة الاسلامية ، واقوى عراك ثقافي عرفته الآداب العربية، هو عراك في السياسة ، والدين ، واللغة ، والادب ، والعلم ، والاخلاق .

عراك في السياسة بين الملك الأعجمي والخلافة العربية .

وعراك في الدين اولاً بين المجوسية والاسلام ، ثم عراك في الفقه والتفسير ، بعد ان اطمأن الفرس الى الاسلام ، بين الاخذ بالرأي والقياس ، والاخذ بالتقليد عن السلف الصالح ...

وعراك في اللغة بين الشعر الجاهلي ، او الادب العربي المحض ، والشعر المولد او الطريقة المستحدثة بتأثير الفرس وغير الفرس.

وعراك في العلم بين التقليد العربي المتناقل الذي ان لم يفد كثيراً فانه لا يضر ، والعلم الاجنبي المنقول عن المدنيات القديمة مما لم يكن للعرب به عهد .

وعراك في الاخلاق بين تلك الشهوة البدوية الساذجة، واللذة المنهومة نهماً التي كثيراً ما تمتزج بحسن القصد وصدق السريرة، هذه اللذة الفارسية الغنية الموطأ لها بالاستعداد ، الآخذة بطرق المدنية على اختلاف مظاهرها .

الحياة في بغداد

وكان القادم على بغداد ، اذا اشرف عليها ، بانت له اسوارها الحصينة القائمة حولها، وهاله مايشاهده من عظمتها ،واتساع رقعتها، وكان لبغداد اربعة ابواب، الباب الذي يواجه طريق الكوفة ،وهو عبارة في دهليز عظيم قائم في جوف السور الخارجي ، وعليه باب كبير ، فاذا جاوز المرء الدهليز وجد نفسه في رحبة واسعة ، تقوم بين الاسوار الخارجية والداخلية ، فاذا قطع الرحبة انتهى الى باب المدينه الداخلي الذي تقوم عليه الابراج والشرفات المدورة ، ومنه

الى دهليز ثان في جوف السور الداخلي ، وعندئذ يبصر المرء امامه بابين من الحديد كبيرين حتى ليدخل الفارس منهما دون ان يلتوي رمحه ، فاذا انتهى المسافر من هذه الاسوار والدهاليز والأبواب المحروسة من الجند ، الى المدينة العظيمة ذهل لما يرى ، ولا يكاد يصدق عينيه لعظيم ما يشاهد ...

يدهش لكثرة الناس في الشوارع ، ولتعدد اجناس المارة ، وللطابع الاعجمي الذي يسود المدينة ، والذي كان غريباً عنه ، لم يعهد مثله في البصرة ولا في الكوفة ...

ولا بد من القول ان الانقلاب في العادات بين عصر الأمويين والعباسيين كان عظيماً ، فلئن كان الأمويون قد تقبلوا بعض العادات مع صبغها بصبغتهم ، فان العباسيين كانوا هم الذين ينتقلون بحذافيرهم الى العادات الجديدة ، لا يبدّلون منها لونا ، ولا يغيرون فيها رسماً ، خذ مثلاً عيد (النيروز) وكان عيداً قديماً للفرس ، لم نسمع انه كان له شأن ذو بال في العصر الأموي ، ولكن العباسيين اتخذوه عيداً قومياً ، يحفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالهدايا والقصائد ، ويجلس فيه الخلفاء للتهنئة ، وقل مثل ذلك في غيره وسواه من العادات والأزياء الفارسية كالقلانس واتخاذ العمائم على القلانس ، وكان لكل طبقة من الناس عمة ، فللخلفاء عمة وللفقهاء عمة ، وللبالغين عمة ، وللأعراب عمة ، ولكل قوم زي ، فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ، وللشرط زي ، وكان اصحاب السلطان على مراتب ، ولكل مرتبة زي ولون ...

وكان الخلفاء الأمويون اذا وهبوا كانت جوائزهم وهباتهم من

الابل وبعض الحلى... فلما جاء العباسيون أفرطوا في الهدايا، وتبدلت عاداتهم فيها ، فكانت الجوائز عندهم احمال المال ومئات الملابس والخيل بمراكبها ، حتى لقد انقطعت الصلات الاجتماعية والعادات العربية المعروفة بين عهد العباسيين والعرب في الجزيرة وغير الجزيرة...

يقول صاحب الأغاني في حديث طويف عن « ناهض بن شولة » وهو شاعر بدوي من شعراء العصر العباسي ، انه شهد يوماً حفلة عرس في حلب ، فدار عقله واختبل فكره ، بما رأى ومما لا عهد له به في البادية ، خصوصاً فيما يتصل بالاحتفاء بالعروس ، وألوان الملابس ، وأشكال الأطعمة والأشربة وآلات الغناء الفارسية ، حتى أمعن الناس في الضحك من امعانه في الغفلة والعجب ، ولقد كان يجن حقاً لو انه شهد حفلة عرس في بغداد ، وهي في ذلك العهد اكثر ترفاً وأشد تأنقاً ...

ولا بد من القول ان الخلفاء العباسيين في اول عهدهم كانوا قوما ينظرون الى اللذائذ نظرة منكرة ، كذلك كان شأن ابي العبـــاس السفاح والمنصور ، خصوصاً المنصور فانه كان رجلاً شديداً لا يحب الشراب ولا يُشرب على مائدته شراب ، وكان لا يسرف في عطاء شاعر او اديب ومادح ، ويؤنب اولاده اذا اسرفوا في العطاء ، ولا يتعالى في ثوب يلبسه ، ومائدة تمد اليه ، وكان مقتصداً كل الاقتصاد الى حد الاسراف ، فلما مات ترك في خزائنه اربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم ، فرقها ابنه المهدي في الناس...

وكان المهدي كريماً الى حد الاغراق ، كما كان المنصور مسرفاً في الاقتصاد الى حد الاسراف ، وكان يقرب الشعراء والادباء

والمغنين ويكثر لهم من العطاء والهدايا وكان مترفاً في ملبسه ومأكله، يُحمل له الثلج الى مكة وهو يحج ... وهو اول خليفة فعل ذلك...

وانتقل الناس نقلة اخرى من حيث السرف في الترف في عهد الرشيد، ويرجع ذلك الى اسباب، منها ما كان من النشوء الطبيعي للامة، فكان من انضباط امورها ما زاد ثروتها، ومكنها من ان تعيش عيشة ناعمة، فقد حكي (ابن خلدون): ان دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قنطاراً، والقنطار في حسابه عشرة آلاف دينار، فيكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومائة وخمسين الف دينار، وهي ميزانية ضخمة تدلنا مهما بولغ فيها على غنى الدولة وتمكنها من حياة النعيم...

ولقد عظم سلطان الفرس في عصر الرشيد وعلى رأسهم البرامكة، والفرس من قديم يعرفون بالميل الى اللهو والسرور، والافراط في حب الاشربة وسماع الغناء، فلما تمكنوا من الدولة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة، وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث، نقلوا نظم الحكم الفارسي الى الدولة العباسية، ونقلوا لهوهم من شراب ومجالس وغناء وغزل ..

الثقافة والحضارة

وكان الرشيد من اكبر المعززين للفنون والعمران في عهده، بما كان يظهره لاصحابها من التقدير، وينثره عليهم من الهبات.

فقد دخلت الثقافة اليونانية الى البلاد العربية الاسلامية من طرق مختلفة فمن عهد الاسكندر خضعت العراق، او ما بين النهرين للثقافة

الاغريقية ، وكان ملوك (بارثيا) يحضرون الحفلات التي تمثل فيها الروايات اليونانية التمثيلية ، كما نسمع ان (كسرى انو شروان) في السنة الخامسة بعد المسيح انشأ جامعة (جند نيسابور) في خوزستان التي ظلت ترسل اشعتها العلمية مدى ثلاثمائة سنة بعد سقوط دولة الفرس ،وفي هذه الجامعة كان يصار الى تدريس الفلسفة اليونانية والطب.

وكان اهل العراق قبل الاسلام اساتذة العرب في الثقافة اليونانية ، واما في البيع والاديرة التي كانت تقوم بين انطاكية والموصل فقد كان السريان يترجمون الاثار اليونانية الى اللغة السريانية .

ومن المؤكد اليوم ان سكان (حران) كانوا نقلة الفلسفة اليونانية الى العرب، وكان سبب ذلك انهم كانوا يحسنون اللغة العربية احساناً عظيماً فكانت ترجماتهم والحالة هذه اصدق وادق .

فضل العرب

يقول (داوسون) في كتابه (اصول اوروبا والمدنية الاوروبية):

« كانت الحضارة العباسية ، ولسانها العربية ودينها الاسلام مكملة بمظهرها العقلي للحضارات القديمة التي مثلتها مملكة العباسيين الواسعة ، ويصح ذلك على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلم العربي اللذين ارتقيا في ذلك العصر ، واثّرا تأثيراً عظيماً في اهل القرون الوسطى عامة ، ولقد كانت الحركة العلمية في العالم في اكثر من اربعة قرون بايدي الشعوب الاسلامية ، وعن العرب اخذت اوروبا الغربية اصولها العلمية ، ويرجع العمل العالمي والفلسفي في العالم الاسلامي الى العرب والى الاسلام نفسه ، فقد تضافرت الجهود جميعها على الترجمة

والشروح المختلفة للآثار القديمة ، وان كان الخلق محدود المسالك ضيق الاطراف ، واذا استثنينا الكندي فيلسوف العرب ، فقد نجد حظ العرب ضئيلاً في هذه الحركة الفلسفية ... التي يرجع الفضل فيها الى مسلمين من غير العرب[1] .

وقال: « ان النصارى السريان في (بابل) والصابئة في (حران) كانوا واسطة لنقل الثقافة اليونانية الى الثقافة الاسلامية ، وان علماء البصرة اخذوا منطق ارسطو عنهم ، وان هذا الاقتباس عن اليونان كان قليلاً لا شأن له، وان العرب لم يأخذوا شيئاً من الشعر ولا اقتبسوا التمثيل، ومع هذا ترك البيان اليوناني اثراً ظاهراً في الاداب العربية ، ولاسيما في كتابات الجاحظ ، اكبر منشيء واعظم استاذ في القرن التاسع ، وعظم النفع بما ابقته الثقافة اليونانية في العلوم والفلسفة ، وتلقى المسلمون باليمين ، ما كانت مدارس اثينا والاسكندرية قد تركته منذ القرن السادس ، وكانت اراؤهم في الفلسفة كآراء فلاسفة اليونان ، اي التوفيق بين فلسفة ارسطو ، والافلاطونية الجديدة ، ومزج كل منهما بالاخرى... اخذوا اصول

---

(١) يزعم بعض المستشرقين ان اثر العرب في الفلسفة ضئيل محدود ، وان ما صدر عن العرب من اراء فلسفية واستنتاجيات منطقية ، يجب ان يرد الى المسلمين من غير العرب ، لا يفرضون للامتزاج الذي صار بين الشعوب مقاماً ، ويحسبون ان الفارسي المسلم الذي تعلم العربية وربي بين العرب وعاش بين العرب ، وكان من رعايا دولة عربية . يجب ان يرد - اذا كان من كبار الفلاسفة والمؤلفين - الى اصله الفارسي ، ولو اعتمدنا هذا الرأي لكان اكثر كتاب العالم الذين تفتخر بهم شعوبهم غرباء عن هذه الشعوب بعيدين عنها يجب ان يردوا في اصولهم الى امم اخرى ، وشعوب غير الشعب الذي كتبوا بلغته ونعموا برعويته ..

هذا التحليل ، فحققوه بقوة فكر ،ونزاهة علمية، وكان عملهم فيهـــا من اتم واحكم ما وفقت اليه الفلسفة في عصورها الماضية ، ونجح علماء العرب بتنظيم الفلسفة فـلم تكن عندهم مجموعة معلومـــات مختصرة مركومة ، بل جعلوا لهـا قواعد تامة لا تتجزأ من مجموعها العناصر ، واحتفظت الحضارة الاسلامية بتفوقهـــا خلال القرون الوسطى في الشرق واوروبا الغربيـــه .

«وبينما كانت الامبراطورية البيزانطية يتولاها الضعف بسبب غارات العرب والبرابرة من سكان اوروبا ، كانت الحواضر الاسلامية في شواطىء البحر المتوسط الغربي تدخـل في اعظم طور من اطوار نهضتها ...

« لقد اعتدنا اعتبار مدينتنا وكأنها تألفت من جوهر الحضارة الغربية حتى صعب علينا ان نعتقد بأنه اتى زمن...واهم قطر متحضر في اوروبا الغربية ،لم يكن سوى ولاية ذات مدنية غريبة عنها، وان البحر المتوسط مهد حضارتنـــا كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً ، وكادت النصرانية في الغرب والاســلام في الشرق يكونان شيئاً واحداً في زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية ، وكانت اسبانيا والبرتغـال وصقلية، تأوى حضارة اسلامية ظاهرة،هذا ما كان عليه الحال في القرن العاشر ، وقد فعلت هذه الحضارة فعلها العظيم في رقي العـالم في القرون الوسطى ، فانتشرت الثقافة الغربية في ظل حضارة الاسلام ، واستطاعت النصرانية في قرونهـــا الوسطى بفضل هذه الحضارة ان تأخذ طرفاً من التراث العلمي والفلسفة اليونانية ، ولم يتم هذا إلا عقب الحروب الصليبية ، حيث تمكنت الحضارة النصرانية

الغربية ... من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الاسلامية ، وبقيت مع هذا متأثرة بالمؤثرات الشرقية ..»

بدء النشاط الثقافي

وكان بدء النشاط الثقافي الاسلامي العباسي في عهد المنصور حيث عاش في عهده « سيبويه » واضع اصول النحو والصرف على اصوله الحالية ، والخليل بن احمد في البصره ، والكسائي في الكوفة ، وكان هذا الاخير مؤدب اولاد المنصور ، وفي عهده ايضاً ظهر الأصمعي المشهور .

وفي سنة ١٤٣ هجرية ... بدأ العلماء المسلمون يضعون الكتب والمؤلفات في السنة والحديث والقضاء والتشريع وتفسير القرآن ، فكتب « مالك » كتاب الموطأ في المدينة ، وظهر الاوزاعي في سورية ، وسفيان الثوري في الكوفة ، وابن جريج في مكة ، وحماد ابن مسلمه وغيره في البصرة ، ومعمر في اليمن .

وفي سنة ١٤٨=٧٦٥م لما مرض المنصور وقطع الأمل من شفائه بعث الى جورج بن بختيشوع وكيل جامعة « جند سابور » وكانت هذه البلدة مشهورة بجامعتها الطبية التي أسسها انو شروان سنة ٥٥٥م[1] فوفق في تطبيبه وشفائه ، فقربه المنصور اليه ، وانزله في قصره ، وفي عهد هرون الرشيد نرى ابن جبريل بن بختيشوع طبيباً خاصاً للخليفة ، واصبح جورج رب عائلة امتد شأنها مائتي سنة ، وسيطرت على الطب في عصرها ، وكان ابن جورج مديراً للمستشفى في بغداد عهد الرشيد ، وابنه جبريل طبيباً خاصاً للرشيد ، وفي عهد المنصور

(١) كان التعليم فيها يصار وفاقاً للعلم الأغريقي ، وكانت الآرامية لغة التعليم .

ايضاً كتب ابن المقفع كليلة ودمنة ، وترجم الشاهنامه عن الفارسية ، وهو عبارة عن تاريخ امراء وابطال فارس ، ومنه استقى الفردوسي كتابه المشهور .

وفي عهد المنصور ايضاً ظهر مذهب العقليين — المعتزلة — الذين يعتقدون بكفاية العقل دون الوحي ، او اصحاب الاسلوب العقلي ، الذي يرجع في اصله الى آراء حسن البصري ، وكان من مؤيديه عبد الهذيل العلاف ، وهو الذي وضع لهذا المذهب فروقاً وحدوداً تتعلق بحرية الارادة والعقيدة الالهية .

ومن الأدلة على رحابة صدر الخلفاء في هذا العهد اهتمام المنصور بمؤلفات غير المسلمين الدينية ، فترجمت كتب « ماني » الى العربية في عهده ، وصار ترجمة كتب « ارسطو » وبعض الكتب السنسكريتية .

ويقال ان ابن المقفع فسر منطق ارسطو ، ومنطق ارسطو اعطى المسلمين سلاحاً منطقيــاً صار استعماله في الجدل الديني الذي تطور تطوراً عظيماً بعد عهد المنصور .

وامــا التشريع الاسلامي فقد وضعت قواعده النهائية في عهد الخلفاء العباسيين الاول ، فانهى ابو حنيفة مذهبه في عهد المنصور ، ومــالك والشافعي في عهد هرون الرشيد ، واحمد بن حنبل في عهد المأمون .

وليس في عهد المهدي والهادي ما يذكر ، فقد انصرف الرجلان الى القضاء على البدع وملاحقة الزنادقة .

وامـا في عهد هرون الرشيد فقد كان النشاط الثقافي والعلمي والفلسفي عظيماً ، فصار انشاء (بيت الحكمة) لحفظ الكتب ونشر

المعرفة ، فكلف فضل بن نوبخت بحفظ الكتب الفارسية ، ويوحنا بن ماسويه من جامعة جند سابور بحفظ الكتب اليونانية التي حملها المنصور معه من آسيا الصغرى .

وجمع الرشيد حوله الفلاسفة والقضاة والعلماء واهل المنطق يباحثهم ويحاورهم ويجزل عطاياهم ..

وكان محباً للتجديد في كل لون من الوان الحياة ، فجمع حوله الاطباء وجلب بعضهم من الهند ، وكان يفكر في المشاريع الكبرى ، وقد روى المؤرخون انه اراد حفر قناة السويس في عهده ، او على الاقل ان يجعل مجرى النيل يصب في البحر الاحمر ، وما ترك هذه الفكرة جانباً إلا لاسباب سياسية تقدم اليه بها بعض وزرائه ورجال دولته ...

وكانت رغبة الناس في طلب العلم والاقبال على القراءة ، ومطالعة الاثار اليونانية عظيمة جداً ، والعربي وان كان كثير التكيف والتقليد الا انه كان يضع دائماً فيما ينقله عن غيره شيئاً من روحه ونفسه.

والواقع انه في اقل من ثلاثة ارباع القرن بعد تأسيس بغداد ، كان بميسور القارىء العربي ان يحصل على اكثر مؤلفات (ارسطو) وشروحها ، وتعليقات (افلاطون) عليها ، واكثر اثار (غالن) الطبية ، واكثر المؤلفات العلمية التي صار ترجمتها من الهندية والصينية ، وفي سنوات قليلة استطاع العرب ان يهضموا كل هذه الثقافات التي صرف الاغريق مئات الاعوام في وضعها واخراجها .

وتأثر العرب اول ما تأثروا بالهنود في الحكمة والادب والرياضيات ، ففي سنة ١٥٦ هجرية (٧٧٣م) حمل مسافر هندي معه

الى بغداد كتابا في علم الفلك ، وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بامر المنصور محمد بن ابراهيم الفزاري بين سنة ٧٩٦ـ٨٠٦ وهو اول فلكي في الاسلام ، وطبعاً كانت النجوم تشغل بال العرب منذ القدم ،ومنذ كانوا في جزيرتهم ، ولكنهم لم يدرسوها دراسة علمية قبل هذا العهد ، وقبل ظهور هذا الكتاب .

وجلب السائح الهندي معه ايضاً الى بغداد مخطوطاً في الرياضيات ، وقد افاد العرب من هذا الكتاب الارقام الهندية ، وعنهم اخذ الاوروبيون الارقام الحاضرة ، واخذ العرب عن الهنود بعض اصول الحساب (Decimal system) .

وكذلك ترجم فضل بن نوبخت امين دار الحكمة عند الرشيد كتاباً في علم الفلك عن الفارسية وتوفي فضل في سنة ٨١٥م .

واما فارس فقد كان تأثيرها ضعيفاً ، اخذ العرب عن الفرس كتاب (كليلة ودمنة) ، واصله من السنسكريتيه ، وقيمة الترجمة العربيه قائمة في كون الاصل الفارسي قد ضاع ، ولم يعثر له على اثر .. وقد صار نقل هذا الكتاب من الهندية في عهد (انو شروان) ٥٣١ـ٥٧٨ ، وقد ترجم الكتاب الى اربعين لغة حتى الآن ، وعُني بنقلة الى العربية ابن المقفع الكاتب البارع المشهور ...

ويوجد في بعض كتب الادب العربية القديمة بعض الاخبار والنوادر والعظات والحكم المنقولة عن الفرس .

واما التأثير اليوناني في بغداد فكان أقوى من سواه ، وقد رأينا عهد الفتوح الاولى كيف ان « الاسكندرية » و « حران » و « انطاكية » والصوامع والبيع المتفرقة في سورية والعراق كانت

مراكز لبث الفلسفة اليونانية وتعليمها ، وفي عهد الرشيد نرى الرشيد نفسه في غاراته ضد الروم يقوم بالبحث عن الكتب اليونانية القديمة ينقلها معه الى بغداد حيث يصار الى ترجمتها والاستفادة منها .

وفي عهد المأمون كتب هذه الخليفة الى امبراطور الروم يسأله ارسال بعض الكتب اليونانية اليه ، ولما كان العرب لا يعرفون اللغة اليونانية،فقد اضطروا في اول امرهم الى الاعتماد على التراجمة من السوريين النسطوريين الذين ترجموا الكتب اليونانية اولاً الى السريانية ثم الى العربية ، وكانوا اذا صعب عليهم ترجمة عبارة يونانيـــة ، ولم يجدوا لها مثيلًا في العربية نقلوها بأصلها اليوناني .

ووصل التأثير اليوناني الى أوجه في عصر المأمون .

وكان بيت الحكمة في بغداد مكتبة وجامعة ومكاناً للترجمة ، وظل عهد الترجمة رائجاً من سنة ٧٥٠ الى سنة ٨٥٠ ...

وُعني العرب بترجمة الكتب العلمية والفلسفية اكثر من عنايتهم بترجمة الكتب الأدبية عن اليونانية .

وفي بعض المصادر انه صار ترجمة قسم من الالياذة في هـــذا العهد ، وصاحب الترجمة « توفيل بن لوقا » الماروني ، ولكن الترجمة في اصلها العربي لم تصادف رواجاً كما يظهر فضاعت .

وبدأ العرب بترجمة كتب الطب لحاجتهم الملحة اليها اول الامر ، ثم كتب الرياضيات فكتب الفلسفة اليونانية.

المترجمون

ومن اشهر المترجمين ابو يوحنا بن البطريق الذي مات بين سنة

(٧٩٦ ــ ٨٠٦) ويقال انه ترجم للمنصور مؤلفات (غالن) الطبية، و (ابوقراط) ، والكتب الرياضية ، ويظهر ان هذه الترجمات الاولى لم تكن من الصحة والدقة بالقدر الواجب ، فصار العمل على اصلاحها وترجمتها من جديد في عهد الرشيد ..

وهناك « يوحنا بن ماسوية » الذي مات سنة ٨٥٧ ، وهو تلميذ جبريل بن بختيشوع واستاذ « حنين بن اسحق » ويقال انه ترجم للرشيد بعض الكتب الطبية التي حملها الرشيد معه من غزواته في آسيا الصغرى .

واما شيخ التراجمة في هذا العصر فكان حنين بن اسحق (٨٠٩ ــ ٨٧٣ م) وهو مسيحي نسطوري من الحيرة ، تتلمذ في اول امره « لابن ماسويه » ثم سافر مع اولاد ابن شاكر الى بلاد الروم لجمع الآثار اليونانية ، ثم دخل في خدمة جبريل بن بختيشوع طبيب المأمون ، ثم عينه المأمون لدار الحكمة ، وفي هذه الوظيفة كان حنين يسيطر على كل الترجمات التي تصدر عن الدار ، بمساعدة ابنه اسحق، ونسيبه حبيس بن الحسن ، ومن الآثار التي نسبت اليه ما ليس له ، وقد ترجمها غيره ، كابنه ونسيبه مثلاً ، ويظهر ان حنين كان يترجم من اليونانية الى السريانية ثم يسلم الكتاب الى غيره فينقله الى العربية ، وهذا ما حصل في كتاب ارسطو ، فقد ترجمه حنين الى السريانية من اليونانية ، وترجمه ابن اسحق الى العربية ، وهو اشهر من ترجم لأرسطو ، وكذلك صارت ترجمة كتب « غالن » من اليونانية الي العربية ،وجمهورية افلاطون، وكليات ارسطو ،وغيرها من مؤلفاته ، وبذلك حفظ لنا العرب بعض الآثار اليونانية التي ضاعت اصولها الاولى ...

وكان حنين مترجماً لامعاً ، وكان المأمون يدفع له ٢٥٠ ديناراً في الشهر وثقل الكتاب الذي يترجمه ذهباً ، ولقد وصل الى اوج عزه ومجده لا كمترجم وانما كطبيب ، لما اصبح طبيب المتوكل الخاص ٨٤٧-٨٦١م.

وكما كان حنين اعظم المترجمين من النساطرة ، كذلك كان ثابت بن قره ٨٣٦-٩٠١م اعظم مترجم من اهل حران الوثنيين الذين كانوا يعبدون الشمس ، لهذا شغلوا انفسهم اكثر من سواهم بعلم الفلك والرياضيات منذ زمان قديم ، وفي عهد المتوكل اصبحت (حران) مركزاً مهماً لدرس الفلسفة والطب ، وكان هذا المركز الفلسفي الطبي تنعم به الاسكندرية قبلا ، ثم صار نقله الى (انطاكية) ومن (انطاكية) صار الى (حران) ، وفي هذا الوسط العلمي عاش ثابت وتلامذته ، وقيل انهم ترجموا جميع كتب اليونان الرياضية والفلكية ، ومن بينها كتب (ارشميد) و (ابولوتيوس) ، كما حرصوا على اصلاح بعض الترجمات الاخرى التي كان يقوم بها سواهم ، لأنه من المعروف ان ترجمة (اوقليدس) التي قام بها (حنين) قد اصلحها (ثابت) بعده .

ووجد ثابت بن قرة نصيراً ومشجعاً في الخليفة المعتضد ٨٩٢-٩٠٢م فاصبح صديقاً له ، واثيراً عنده .. وخلف (ثابت) في عمله ولديه ابراهيم وسنان ثم حفيديه ثابت وابراهيم ، وقد برهنوا جميعاً على انهم من كبار العلماء في عصرهم .

ولكن اشهر اسم سابائي بعد ثابت هو (التباني) ٩٢١م ، او ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان ، وقد اسلم ، فانه وضع في علم الفلك

اشياء لم يسبقه اليها غيره ، ولم يكن مترجماً وانما كان مؤلفاً وعالماً .

وهناك مترجمون من غير (حران) اشهرهم الحجاج بن يوسف بن مصر (٧٨٦-٨٣٣) ويقولون انه ترجم اوليات اقليدس ، وقسماً من كتاب المجسطى ، وقد صنع من الكتاب الاول نسختين اهدى الاولى للرشيد ، والثـانية للمأمون ، وذلك قبل ان يترجم حنين نسخته ، ويظهر ان ترجمة اولى لكتاب المجسطى سبقت هذا التاريخ وذلك في عهد يحيى بن خالد بن برمك وزيد الرشيد ، ولكن الترجمة لم تكن ممـا يرضي ، ثم ظهرت ترجمة اخرى لأبي الوفا محمد البزجاني الحاسب (٩٤٠-٩٩٧ او ٩٩٨) وهو من اشهر الفلكيين والرياضيين في الاسلام .

وهناك قسطا بن لوقا الذي مات سنة ٩٢٣ ، وكان ممن اشتغلوا بترجمة الكتب الرياضية ، ويذكر الفهرست انه ترجم ٣٤ كتاباً .

وفي اواخر القرن العاشر ظهر اليعاقبة المترجمون ،مثل يحيى بن عدي ، الذي ولد في تكريت ٨٩٣ ، ومات في بغداد ٩٧٤ ، وابو علي عيسى بن زراح ، من بغداد ، ومات سنة (١٠٠٨) وقد صرح يحيى لصاحب الفهرست ، وكان قد صار بطركاً لكنيسته، بأنه ينقل في النهـــار الواحد مائة صفحة ، وشغل اليعاقبة انفسهم في اصلاح الترجمات السابقة ، خصوصاً ترجمات ارسطو ، او ترجمة مؤلفاته ترجمة جديدة ، وهم الذين ادخلوا في الاسلام مذاهب افلاطون الفلسفية .

وقبل ان ينتهي عهد الترجمة ، كان العرب كما تقول مصادرهم قد قلوا الى لغتهم مـــا يزيد عن مائة كتاب من آثار ارسطو وحده ، بينما كانت اوروبا لا تعرف شيئاً عن ارسطو وفلسفته ... لأنه

بينما كان هرون الرشيد والمأمون يعملان على دراسة الفلسفة اليونانية وتشجيعها، كان شارلمان وجماعته في الغرب يتعلمون كيف يكتبون اسماءهم.

وكان لأرسطو وفلسفته شأن عند العرب، وكانت فلسفته اساساً لكثير من المذاهب الفلسفية التي ظهرت بعد ذلك.

ولما دخل المأمون الى بغداد بعد الحرب الاهلية التي وقعت بينه وبين شقيقه كان نصف المدينة قد تهدم، كما خسرت العاصمة لقب البلدة المستديرة، وعاش المأمون في القصر الجعفري.

وكان يقف على ضفاف دجلة في عهد الرشيد والمأمون مئات البواخر الآتية من جميع البلاد الخاضعة للامبراطورية، وكانت التجارة رائجة جداً، وسوق البيع والشراء والتصدير والتوريد نافقة جداً، وكان يرد الى بغداد من الصين البورسلين والحرير والمسك، ومن الهند وجزر الملايا البهارات والعطور والاصبغة والمعادن المختلفة والعسل والشمع والفرو، والعبيد البيض من بلاد اسوج ونروج وروسيا، والعاج والذهب والعبيد السود من افريقيا، وغير ذلك مما يصعب تقديره وضبطه، يكفي ان نقول ان كل واردات العالم كانت تصب في بغداد، كما ان امصار الامبراطورية كانت ترسل مصنوعاتها وحاصلاتها الى الخارج، اما بحراً او بواسطة القوافل التجارية، فكانت مصر تصدر الارز والصوف والحبوب، واما الزجاج والفاكهة فكانت تصدر من سورية، وكانت تصدر بلاد العرب الجواهر والاسلحة، وفارس تصدر الطيب والخضر المختلفة ..

- ٣ -

الرشيد في عاصمته

هرون في بغداد .

شطر هذه العاصمة الجميلة الرائعة ، ولّى هرون الرشيد في اليوم الاول من خلافته وجهه ...

وكان النهار الذي دخل فيه الخليفة الى عاصمة ملكه كالليل جمالاً وروعة ، مشى في ركابه جند من الضواحي ، وذهب لاستقباله جند من العاصمة ، وكان اليوم يوم جمعة ... ينصرف فيه الناس عادة الى الصلاة والراحة بعد عناء الاعمال طيلة اسبوع كامل ، فلما استقامت للناس في الصباح حاجاتهم المنزلية ... نفروا الى الشوارع والساحات يرتقبون طلعة الخليفة الجديد ، وقد ثارت في عواطفهم هزة طرب وتفاؤل ، أليس يقال انهم كانوا يعرفون في الخليفة الجديد رأياً وحلماً وفضلاً ...؟

ويظهر الموكب الملكي على مقربة من الجسر الكبير ،فتهتف له الجماهير ، وتزغرد النساء ، وتعج الطرق والمنعطفات ، والشرفات ، بالمستقبلين والمتفرجين والمهللين ، منظر لم تر مثله بغداد قبل اليوم ،

ويتقدم الجند الموكب بالبستهم السوداء ... يفتحون للمليك الجديد طريقاً على مهل، وسارت خلفهم كتيبة من الفرسان وسيوفهم مشهورة، فامراء البيت المالك من كبار العباسيين فالبرامكة ويحيي بن خالد على رأسهم ، وعلى مقربة منه هرون الرشيد ببذلة سوداء على جواد اسود وكان هرون في الرابعة والعشرين من عمره لماولي الخلافة جميل الوجه ظاهر البشر ، معتدل القامة ، متناسب الاعضاء ، حسن الطلعة ، تلك كانت مظاهر هذا الخليفة الجديد الذي سيصبح في مقبلات الاعوام ملء السمع ملء الابصار ...

والواقع ان الناس في بغداد لم يكونوا في عهد من العهود اكثر تفاؤلاً منهم في عهد هرون الرشيد ، واشراق الخـــلافة في عهده ، ولسنا نعرف لذلك سبباً إلا دهاء (الخيزران) ولباقة (يحيى بن خالد) ، وما تلطفا به من دعاية قوية للخليفة الجديد ، حملت الناس على البشر والتفاؤل ، ودفعتهم الى ان يستقبلوا (هرون) استقبالاً لم يظفر به خليفة قبله ..

ووقفت الملكة الوالدة في احدى شرفات قصرها تنظر الى فتاها يتقدم على مهل بين الجموع المحتشدة ، وراحت بالفكر الى ايام سالفات لما كان فتاها هرون ما يبرح ولياً للعهد ، ما يمشي امامه إلا نفر من العبيد قليل ، فاذا الدنيا تمشي اليوم في ركابه ، وتسير الامجاد من خلفه ومن قدامه ، ويهتف الناس تيمناً بملكه وعهده ..

ويقف الموكب فجأة ويتطلع الناس ، واذا هرون ينظر الى النهر صامتاً مفكراً ...

واذا هو يذكر يوماً رمى فيه بخاتم ولاية العهد الى قاع النهر

وهو الخاتم الذي قلده اياه ابوه المهدي ، وذلك لما جدّ شقيقه في طلبه وراح يلح على هرون ليخلع نفسه من ولاية العهد لابنه ، ففضل ان يرمي بالخاتم الى النهر على ان يتنازل عن حقه وارثه .. واما اليوم فقد اصبح هرون خليفة حقاً ... فما هو إلا ان يشير الى رئيس حرسه حتى يندفع الى قاع النهر مئة من الخدم والعبيد ، وما هي الادقائق حتى يصيح احدهم مكبراً ، واذا به يرتفع الى فوق الماء وقد علت وجهه ابتسامة فرح وانتصار ، واذا الخاتم الملكي قد اصبح في يده ، فيتناوله هرون ، ويرده الى مكانه من اصبعه ، ويستأنف الموكب سيره ، ويعود الناس الى هرجهم وصخبهم وهتافهم وتكبيرهم ، وينقضي اليوم في صلاة ومبايعة واستقبالات ، ثم يقبل المساء ، وقد اطمأن هرون الى انه اصبح ملكاً حقاً ، وانه سيد العالم ...

ذلك ان الخليفة لم يكن في هذا العهد امير المؤمنين فحسب كما كان الحال عهد النبي والخلفاء الراشدين من بعده ، ولم يكن الخليفة ذلك الرجل الصالح الذي يعهد اليه المسلمون بصلاتهم ومصالح دينهم ، ولا كان ذلك الملك الاموي الذي كان مجلسه مليئاً بالبساطة والديمقراطيه ، لقد اصبح غير ذلك كله حقاً ، اصبح ملكا قويا يفعل ما يشاء ويأمر بما يريد ، واصبح سلطانا امره الامر ، وقوله الفصل..

لقد كان الخلفاء قبل هذا العهد يتحدثون بشؤون الدولة الى خاصتهم ، ورجال البلاد في عهدهم ، وكانوا لا يعقدون رأيا إلا ان يتناوله هؤلاء الخاصة بالبحث والتأييد والاخذ والرد ، فاصبحوا في عهد العباسيين لا يأخذون برأي خاصتهم في مختلف امور الدولة إلا بمقدار ، ولا يقلّبون وجوه المسائل معهم الا في شيء من العسر كثير...

ذلك ان الحضارة الفارسية قد تناولت الخلافة عند المسلمين ببعض التعديل والتبديل ، وذلك انها قد اعطت للخلافة لوناً جديداً هو اقرب الى الملكية عند الفرس، منه الى مظاهر الحكم الشوري عند العرب ، فجعلت من الخليفة ملكا اقرب ما يكون الى اكاسرة فارس وملوك الهند والصين !!

والذي لا شك فيه ان هرون الرشيد كان في اول نشأته لا يمشي الى الخلافة إلا بمقدار ، وانه كان يفضل عليها حياة هينة وديعة ، يصير اليها هو وزوجه بعيداً عن مشاكل الحياة ، وغدرات الزمان .

ولا يبعد ان يكون يحيى البرمكي والملكة الوالدة قد عرفا فيه هذا الاعراض ، وهذه الوداعة، وحب البعد عن المشاكل وتحمل المسؤوليات فاعتزما تهوين الامر عليه ، وتخفيف الاثقال عن عاتقه ، فكان ما كان من تولي البرامكة شؤون الدولة ، واسترجاع « الخيزران » سلطانها السابق وامجادها السالفة ...

وقد ثبت ان الملكة الوالدة كان لها سلطان على هرون ، وانه لم يتمكن من تولية الفضل بن الربيع منصباً الا بعد وفاتها ، لانها كانت تعارض في توليته ، وترفض تعيينه .

والظاهر ان الملكة الوالدة في عهد الرشيد كانت تنظر في مهام الدولة ايضاً ، وكان يحيى البرمكي يعرض عليها كل شيء ويصدر عن رأيها في كل شيء ، فلما انتقلت الى رحمة الله بعد ثلاث سنوات من خلافة الرشيد ، اصبح يحيى وحده لا شريك له في تدبير الملك وشؤون الدولة ، فضمّ اليه اولاده الاربعة يساعدونه في امره

ويصدرون عن رأيه ... وكانوا جميعاً من السادة النجب .

كتاب الرشيد الى الشعب

وكان اول اعمال الرشيد ان ارسل الى الامصار ينبؤهم بمبايعة الناس له بالخلافة ، وكان الخبر مصوغاً بلغة كاتبه يوسف بن القاسم بن صبيح ، ونظن اننا نحسن صنعاً اذا نقلنا هذه القطعة الادبية الفريدة يتعرف القارىء فيها على اسلوب الدواوين في ذلك العهد ، وكيف كانت تصدر عن دار الخلافة التشريعات والبيانات العامة ..

« ان الله بمنه ولطفه ، منّ عليكم معاشر اهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وآتاكم اهل الطاعة من انصار الدولة واعوان الدعوة ، من نعمه التي لا تُحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الابد ... إذ جمع أُلفَتَكم واعلى امركم ، وشد عَضُدَكم ، واوهن عدوكم ، واظهر كلمة الحق ، وكنتم اولى بها واهلها ، فاعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم انصار دين الله المرتضى والذابين بسيفه المنتضى ، عن اهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من ايدي الظلمة ائمة الجور ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدم الحرام ، والآكلين الفيء ، والمستأثرين به ، فاذكروا ما اعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا ان تغيروا فيغيّر بكم ، وان الله جل وعز ، استأثر بخليفته موسى الهادي الامام فقبضه اليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً اميراً المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً ، من مُحسنِكم قبولاً ، وعلى مسيئكم بالعطف عطوفاً ، وهو - امتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه اياه من امر الامة ، وتولاه بما تولى به اولياءه

واهل طاعته ـ يعدكم من نفسه الرأفة بكم ، والرحمة لكم ، وقسْمَ اعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما افاء الله على الخلفاء مما في بيوت المال ، ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مُقاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من اعطياتكم ، وحاملاً باقي ذلك للدفع عن حريمكم ، ومما لعله ان يحدث في النواحي والاقطار من العصاة المارقين الى بيوت الاموال ، حتى تعود الاموال الى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من احسانه اليكم بما جدد لكم من رأي امير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ايده الله بطاعته ، وارغبوا الى الله له في البقاء ، ولكم به في ادامة النعماء ، لعلكم ترحمون ، واعطوا صفقة ايمانكم ، وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، واصلح بكم وعلى ايديكم وتولاكم ولاية عباده الصالحين . »

وزير هرون الرشيد

وكان يحيى بن خالد البرمكي كما قدمنا وزير الرشيد ، قلده امر الرعية لما بويع بالخلافة ، وترك له الامر والنهي يستعمل من يشاء ويعزل من يشاء ، فكان يحيي وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوسا عاماً في كل يوم ، الى انتصاف النهار ، ينظرون في امور الناس وحوائجهم ، لا يُحجب احد ، ولا يُلقَى لهم ستر ، وقام يحيى بالامور ، وكان يعرض على الخيزران ، ويورد ويصدر عن امرها ، مما يدل على ان « الخيزران » الملكة الوالدة عادت الى شأنها وعزها ، والتدخل في شؤون الدولة اول عهد هرون الرشيد

ابنها الاصغر كما قدمنا ...

ومن اعمال يحيى انه احتفر نهر القاطول ، وانفق عليه عشرين الف الف درهم ، وامر باجراء القمح على اهل الحرمين ، وتقدم بحمله من مصر اليهم ،واجرى على المهاجرين والانصار القطاع وعلى وجوه اهل الامصار ، واهل الدين والاداب ، والمروءآت ، واتخذ كتاتيب لليتامى ، وهو اول من فعل ذلك لاننا لا نسمع قبلاً عن تدخل الحكومة في امر التعليم ، الذي كان يقوم بـه الافراد من الناس في المساجد ، والكتاتيب الخاصة .

وكانت الدواوين كلها الى يحيى بن خالد مع الوزارة ، سوى ديوان الخاتم ، فانه كان الى ابي العباس الطوسي ، وهو اول من زاد في الكتب الرسمية « وأسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله » .

وارادت « الخيزران » ان يقتل من كان تسرع الى خلع الرشيد ودعا الى بيعة جعفر بن الهادي ، فما زال يحيى حتى صرفها عن ذلك ، وأرسل من فعل ذلك منهم الى الحرب فانقذهم من الموت .

ثم استقل يحيى بامر الرشيد في مكاتبة العمال ، وكانت الكتب لا تنفذ الا بعد ان يقرها الرشيد نفسه ، فكانت تتأخر ، فشكا يحيى من تأخرها ، لان في ذلك تأخير الاعمال ، فامره ان يكاتب العمال عن نفسه ، وامر كاتبه ان يكتب عنه في المهم .

وكان اصحاب الحاجات يكثرون القعود على دكان ، على باب يحيى بن خالد ، وكان يحيي اذا رآهم وقف عليهم طلق الوجه ، ضاحك السن ، فلا يذهب واحدهم الا راضياً ...

وطلب يحيى من ابي عبيد الله معاوية وزير المهدي مشاركته

في عمله ، فاعتذر وقال له :

ـ قد كبرت سني ، ولا حاجة لي الى العمل ...

فتركه يحيى وقال : هذا يظن ان الامور لا تتم إلا به .

*

وكان يحيى يقول لولده :

« لا بد لكم من كتاب وعمال واعوان ،فاستعينوا بالاشراف ، واياكم وسِفْلَة الناس فان النعمة على الاشراف ابقى ، وهي بهم احسن ، والمعروف عندهم اشهر ، والشكر منهم اكثر . »

وكان يحيى يحاول ما كان الى ذلك سبيل تحبيب الناس اليه والى أهله ، وهذا من حسن السياسة وبعد النظر ، فقد كان يعلم ان الناس حساد لكل ذي نعمة ، فكان يقطع حسدهم باكرامهم باسمه واسم ولده ، حتى انه فرّق على الناس يوماً باسم ولده الصغير خمس مئة ألف درهم ، وحتى انه كان يحبو بعض اهل الأدب والفن بآلاف الدنانير استصلاحاً لهم ، وتحبباً اليهم .

ومن نوادر يحيى ورحابة صدره ما حدث العتابي عنه قال :

ـ « كنت انا ومنصور بن زياد عند يحيى بن خالد ، وهو يتحدث ، والخدم يعبثون ويترامون بالبطيخ ، حتى جاءت بطيخة فاصابت وجهه ، فوالله ما تحرك ولا غضب ، فقال له منصور :

ـ اصلحك الله لو نُهي هؤلاء وأخيفوا حتى لا يجترئوا على مثل هذا .

فقال يحيى : اللهم غفراً ، نحن نحب ان نؤمّن من بَعُد عنا ، فكيف نُخيف من كان على بساطنا ...

*

وحدّث علي بن الجنيد عن يحيى قال :

كانت بيني وبين يحيي بن خالد مودة وانس ، فكنت اعرض عليه الرّقاع في حوائج الناس ، فكثرت رقاع الناس عندي، واتصل شغله ، فقصدته يوماً وقلت له :

ـ قد كثرت الرقاع ، وامتلأ خُفيّ وكمي، فاما قطولت بالنظر اليها ، واما رددتها .

فقال لى : أقم عندي حتى أفعل ما سألت .

فأقمت عنده ، وأكلنا وغسلنا أيدينا، وقمنا الى النوم ، واستحييت من اذ كاره إياها ، ويئست من عرضها ، ونمت ...

ودعا هو بالرقاع ، فوقع في جميعها ، وردها الى مكانها وانا نائم لا أعلم ، ودخلت اليه في مجلس شرابه فاستحييت من ذكرها ، وشربت وانصرفت بالعشي ، فبكر اليّ اصحاب الرقاع ، لما علموا باقامتي عنده ، فاعتذرت اليهم ، ودعوت بالرقاع لأميزها ، واخفف منها ما ليس بهم ، فوجدت التوقيعات في جميعها ، فلم تكن لي همة إلا تفريقها ، والركوب اليه لشكره ...

ولما سألته عن عدم تعريفي بذلك قال :

ـ سبحان الله ، اردت مني ان أمنّ عليك بان أخبرك ما لا يجوز ان يخفى عنك ...

*

وكان خالد بن برمك ينزل باب الشماسية في الموضع المعروف بسويقة خالد ، وهي اقطاع من المهدي ، وبنى يحيي بن خالد قصراً يعرف بقصر الطين، ثم بنى فيه الفضل بن يحيي وجعفر بن يحيى قصرين

كانا يعرفان بهما .

*

وكان يحيى يميل الى الفضل ، والرشيد يميل الى جعفر ، فكان يقول ليحيى كثيراً :

ـ انت للفضل وانا لجعفر .

وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدّم عليه احداً ، وأنس به كل الانس ، وانزله بالخُلد بالقرب من قصره .

كان الفضل وجعفر أقرب ابناء يحيى اليه في السياسة والحكم ، فكان الفضل في اكثر الأعمال التي اسندت اليه كفؤاً نزيهاً ، وكان من اكثر البرامكة كرماً ، بل لقد كان اكرم من اخيه جعفر ، وكان الناس يسمونه في بدء اعماله بالوزير الصغير .

اما جعفر وهو ثاني اولاد يحيى فكان من علو القدر ونفاذ الامر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزله عند الرشيد بما لم يكن احد يشاركه به ، وكان سمح الاخلاق طلق الوجه ظاهر البشر ، واما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان اشهر من ان يذكر ، وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة ، وكان الرشيد يأنس به اكثر من انسه باخيه الفضل لسهولة اخلاقه وشدة اخلاق شقيقه .. وقد قال الرشيد يوماً ليحيى : ما بال النـــاس يسمون الفضل الوزير الصغير ، ولا يسمون جعفر بذلك ؟

فقال يحيى : لان الفضل يخلفني ..

قال الرشيد : فضم الى جعفر اعمالاً كاعمال الفضل .

فقال يحيى : ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك ...

ولكنه عاد وجعل لجعفر امر دار الرشيد فسمي بالوزير الصغير..

*

وقال الرشيد يوماً ليحيى :

ــ قد احببت ان انقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب انت اليه .

فكتب يحيى الى الفضل يقول :

ــ قد امر امير المؤمنين ، اعلى الله امره، ان تحوّل الخاتم من يمينك الى شمالك » .

فاجابه الفضل : قد سمعت ما امر به امير المؤمنين في اخي ، وما انتقلت عني نعمة صارت اليه ، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه »

وقال جعفر لما قرأ كتاب شقيقه :

ـ لله در اخي ما اكبر نفسه واظهر دلائل الفضل عليه، واقوى منة العقل عنده ، واوسع في البلاغة ذرعه ..

*

ومن هذا يظهر شدة حب الرشيد لجعفر ، ورغبته في ان يكون له مثل شقيقه الاكبر من امجاد الملك وحظوة السلطان ..

وقيل ان هارون الرشيد حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك ومعه ولداه الفضل وجعفر ، فلما وصلوا الى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلس الرشيد ومعه يحيى فاعطيا الناس .. وجلس الامين ومعه الفضل بن يحيى فاعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فاعطيا النـاس ، فاعطوا في تلك السنة ثلاث اعطيات ، ضربت بكثرتها الامثال ، وكانوا يسمونه عـام الاعطيات الثلاث واثرى

الناس بسبب ذلك وفي ذلك يقول الشاعر :

اتانا بنو الآمال من آل برمك فيا طيب اخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام الى العدا واخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة اشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود اكفهم واقدامهم إلا لاعواد منبر

الفضل بن يحيى

وفي سنة ست وسبعين ومائة ولى الرشيد جعفراً المغرب كله من الانبار الى افريقية ــ وكانت هذه الولاية للرشيد في عهد المهدي ــ وقلد الفضل المشرق كله ، من النهروان الى اقصى بلاد الترك ، فاقام جعفر بحضرة الرشيد ، وشخص الفضل الى عمله في سنة ثمان وسبعين ومائة ، وودعه الرشيد والاشراف والوجوه ، وساروا معه ، فوصل واعطى وافضل .

ولما صار الفضل الى خراسان ازال سيرة الجوْر ، وسار في الناس سيرة حسنة عادلة ،وبنى الحياض والمساجد ، واهتم بالعمارة ، والتنوير ، فارضى كل الناس ، ووصل الناس في سنة ١٧٩ بآلاف الدراهم ، ثم عاد الى العراق فتلقاه الرشيد ببستان ابي جعفر لما ورد ، وجمع له الناس واكرمه غاية الاكرام ، وامر الشعراء بمدحه .

*

وكان ابو الهول الحميري هجا الفضل بن يحيى ، ثم اتاه فيما بعد راغبا فقال له الفضل : ويلك ، بأي وجه تلقاني ؟

فقال له : بالوجه الذي القى فيه ربي عز وجل ، وذنوبي اليه

اكثر واعظم ..

فضحك الفضل ووصله .

*

ولما كان الفضل بن يحيى في خراسان فرّق بين الناس اموالا عظيمة واخذ البيعة لمحمد الامين بالعهد بعد الرشيد ، فبايع الناس له.

*

وكان الفضل لا يشرب النبيذ ويقول : لو علمت ان الماء ينقص مروتي ما شربته ابداً ، واما جعفر فكان يشرب، ويجلس للمنادمة .

وكان الفضل كريماً جداً حتى مدحه يوماً احد الشعراء فقال :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى   ترك النـــاس كلهم شعراء

ومن نوادر الفضل في الجود القصة الآتية :

«قيل ان محمد بن ابراهيم الامام ، بن محمد بن علي ، بن عبد الله بن عباس ؛ حضر يوماً عند الفضل بن يحيى ، ومعه سفط فيه جوهر ، وقال له :

ـ ان حاصلي قد قصر عما احتاج اليه ، وقد علاني دين ، مبلغه الف الف درهم .. واني استحي ان اعلم احداً بذلك ، وآنف ان اسأل احداً من التجار ان يقرضني ذلك ، وان معي رهنـــاً يفي بالقيمة ، وانت ابقاك الله لك تجـار يعاملونك ، وانا اسألك ان تقترض لي من احدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن ...

فقال له الفضل : السمع والطاعة ، ولكن نجاح هذه الحاجـــة موقف على ان تقيم عندي هذا اليوم ...

فاقام عنده ، واخذ الفضل السفط منه ، وهو مختوم بخاتمه وارسل

معه الف الف درهم ، و نفذ الدراهم والسفط الى منزل محمد بن ابراهيم الامام ، واخذ خط وكيلة بقبض المبلغ واستلام السفط واقام محمد في دار الفضل الى آخر النهار ؛ ثم انصرف الى داره ، فوجد السفط ومعه الف الف درهم فسر بذلك سروراً عظيما ، فلما كان من الغد بكر الى الفضل يشكره على ذلك ، فوجده قد بكر الى دار الرشيد فمضى محمد الى دار الرشيد ، فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ، ومضى الى دار ابيه فمضى محمد اليـه ، فلم يجتمع به الا في داره وفي آخر النهار فقال له :

ــ اني بكرت عليك لاشكرك على احسانك .

فقال له الفضل : اني فكرت في امرك فرأيت ان هذه الالف الف التي حملتها امس اليك تقضي بها دينك ثم تحتاج فتقترض وبعد قليل يعلوك مثلها ، فبكرت الى دار امير المؤمنين ، وعرضت عليه حالك ، واخذت لك منه مئة الف الف درهم اخرى ، وما كنت اريد الاجتماع بك حتى يحمل المال الى منزلك وقد حمل .

فقال له محمد : باي شيء اجازيك على هذا الاحسان ، ما عندي شيء اجازيك به ، ولكن لك عليّ ان لا اقف بباب احد غيرك .

فلما دالت دولة البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيــع الوزارة بعدهم ، احتاج محمد ، فقالوا له : « لو ركبت الى الفضل بن الربيع » فلم يفعل ، وظل حافظاً عهد البرامكة حتى مات .

* *

وسئل ابراهيم الموصلي ان يصف ولد يحيى بن خالد فقال :

ــ اما الفضل فيرضيك بفعله ، واما جعفر فيرضيك بقوله ، واما

محمدفيفعل بحسب ما يجد ، واما موسى فيفعل ما لا يجد .

وكان موسي بن يحيى من اشجع القوم ، واشدهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله اخواه الفضل وجعفر ، الا انه كان في الدولة عاملاً قويا ، وقائداً باسلاً ولاه الرشيد الشام سنة ١٧٢ هجرية...لماهاجت الفتن فيها فاصلح بين اهلها ووفق بين رجالاتها .

وكان محمد رجلاً بعيد الهمة حسن الاخلاق ، ولكنه كان اقل اشقائه شأنا في سياسة الدولة .

حكمة البرامكة

وكان يحيى يقول : التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة .

وقال : الناس يكتبون احسن ما يسمعون ، ويحفظون احسن ما يكتبون ، ويتحدثون باحسن ما يحفظون .

وقال : رسائل المرء في كتبه ادلّ على مقدار عقله ، واصدق شاهداً على عيبه لك ، ومُعتقده فيك ، من اضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة .

وكان يقول : البلاغة ان تكلم كل قوم بما يفهمون .

وكان يقول لكتابه: اذا استطعتم ان تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً فافعلوا ...

وكان يقول : لست ترى احداً تكبّر في إمارة،إلاوقد دلّ على ان الذي نال فوق قدره، ولست ترى احداً تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه اكبر مما ناله في سلطانه.

وكان يقول : لا أرحام بين الملوك وبين احد ...

وأقوال يحيى هذه غاية في الدقة والحكمة وبعد النظر ، وقد نشرناها لانها تدل على عقول وزراء ذلك العصر ، فالبرامكة واخبارهم اخبار الخلافة العباسية في امجد ايامها مدى سبعة عشر سنة.

والواقع ان البرامكة كانوا في هذا العصر وزراء الدوله ، ومسيّري ادارتها ، ومن أحسن الناس اخلاقاً ، وأنبههم ذكراً ، وأبعدهم مكرمة ، وأجملهم رحمة.

خذ مثلاً هذه النادرة التي تدلك على اخلاق يحيى الوزير :

كان ليحيى قبل الوزارة صاحب يقال له (سماعة) ، فلما تقلد الوزارة رأى بعض اخوانه ان سماعة هذا يقل عن حجابته ، ولا يقدر عليها ، فقال له :

ــ لو اتخذت حاجباً غيره ...

فقال يحيى : كلا ، هذا يعرف اخواني القدماء .

*

وكان يحيى يقول : ما وقع غبار موكبي على لحية رجل قط ، إلا أوجبت له على نفسي حفظه ، وألزمتها حقه ...

وهذا غاية الغايات في الاحسان الى الناس ...

*

وقال يحيى لجعفر ابنه : يا بني انتق من كل علم شيئاً ، فانه من جهل شيئاً عاداه ، وأنا اكره ان تكون عدواً لشيء من الأدب .

*

وكان يحيى اذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالانكار ،

وضرب له امثالاً ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما انكره .

وقال عبد الصمد بن علي : ما رأيت اكرم من يحيي نفساً ولا احلم منه ، جعل على نفسه ان لا يكافىء احداً بسوء فوقّى ..

جعفر والرشيد

وكان الرشيد يسمي جعفراً أخي ، ويدخله معه في كل اموره ، قلده بريد الأفاق ، ودور الضرب والطرز في جميع الكور ...ولعل سبب هذا الحب ان الرشيد لما ولى الخلافة كان فتى في ريعان شبابه ، وأول نشأته ، وكان جعفر مثله فتوة وشباباً ، وكان الرشيد محباً للمرح ميالاً للصيد ، تواقاً للغناء ومجالس الانس ، وكان من الحق ان يكون له نديم يشاركه في مرحه ولهوه وعبثه البريء ، فكان جعفر نعم النديم ،ونعم الصديق...

*

وكان جعفر بليغاً كاتبا ، وكان اذا وقّع نُسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغته ، فحكي علي بن عيسى بن يزدانيروذ ، انه جلس للمظالم ــ أي جعفر ــ فوقع في الف قصــة ونيف ، ثم اخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتّاب وكتّاب الدواوين ، فما وجد فيها شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق .

*

وقال ثمامة بن أشرس :

كان جعفر بن يحيي أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وافهاماً يغنيه عن الاعادة، ولو كان في الارض ناطق يستغني بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة، كما استغنى عن الاعادة.

*

رفع رجل الى جعفر رقعة ذكر فيها قصده اياه — والرقعة في هذا العصر اشبه بالعريضة في أيامنا — بأمل طويل، ورجاء فسيح، فوقع على ظهرها: «هذا يمتّ بحرمة الأمل، وهي أقرب الوسائل، وأثبت الوصائل، فليعجل له من ثمرة ذلك عشرون الف درهم، وليمتحن ببعض الكفاية، فان وجدت عنده فقد ضمّ الى حقه حقاً، والى حرمته حرمة، وان قصّر عن ذلك فعلينا معوله، والينا موئله، وفي مالنا سعة له».

*

ورفع رجل الى جعفر قصة يسأله الاستعانة به، وكان جعفر يعرفه واختبره، فوقّع:

قد رأيناك فما أعجبتنا وبلوناك فلم نرض الخبر

*

ولما رد الرشيد الى هرثمة بن أعين قيادة الحرس — وكانت الى جعفر — قال جعفر:

- ما انتقلت عني نعمة صارت اليك ...

الكتاب والتوقيعات

وكانت العادة في الكتب والتوقيعات ان يوقع الرئيس في القصة بمـا يجب فيها ، ويذكر المعاني التي يأمر بها ، ولم يكن للكتاب في ذلك الامر شيء اكثر من ان يكتبوا تلك الجملة من التوقيع الفاظا تشرحها ، ويقرُب من العامة فهمها ، ولا تخرجهـا عن معنى قصد الرئيس او الامير ...

فلمـا كانت ايام الرشيد وكثر المتظلمون ، كان جعفر يجلس للمظالم وبعد ان يقرأ الرقاع ، يكتب خلفها بما يجب اقراره بشأنها ، وقد حدث مرة ان استدعاه الرشيد اليه وبيده رقعة لم يتمكن من تفهمها بسرعة ، فكتب على ظهرها : « يُعمل في ذلك بمـا يعمل في مثله على سَنَن الحق وقصده ، وجهة الانصاف وسبيله انشالله »

فورد على الكتاب في ذلك العهد شيء جديد ، وامتثلوه ، ثم صار ذلك رسما للرؤساء ، بحيث اصبح من واجبات الكتاب دراسة العريضة المقدمة واقرارها وفاقا لامثالها ..

وكان يحيى ولى رجلًا بعض اعمال الخراج فدخل به على الرشيد ليراه ويوصيه فقال ليحيى ولجعفر ولده : اوصياه .

فقال له يحيى : وَفِّرْ واعْمُرْ .

وقال له جعفر : انصِف وانتصف .

وقال له الرشيد : اعدلْ واحسِن .

ايام الرشيد

وسمى الناس ايام الرشيد (ايام العروس) لنضارتها وكثرة خيرها

وخصبها ، وكانت دولته كما يقول (الفخري) : من احسن الدول واكثرها وقاراً ورونقا وخيراً واوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظم الدنيا ، وقلد وزارته واموره البرامكة فقاموا بالامر خير قيام ، اما الولايات فقد فوضها لامراء جعل لهم الولاية على جميع اهلها ينظرون في تدبير الجيوش والاحكام ويقلدون القضاة والحكام ويجبون الخراج ويقبضون الصدقات ، ويقلدون العمال فيها ، ويحمون الدين ، ويقيمون حدوده ، ويؤمون الناس في الجمع والجماعات او يتخلفون عليها ويسيرون الحج من اعمالهم ، فان كانت اقاليمهم قفراً متاخما للعدو تولوا جهاده .

عامل مصر

ومن عمال الرشيد في مصر وهو (عمر بن مهران) من اخترع طرقا جديدة في الجباية فقد قال لغلامه لما ولي مصر :

« لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجراب ، لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاما » فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من هذه الهدايا ويقبل المال والثياب، ويوقع عليها اسماء من بعث بها ، ثم وضع الجباية فدفع قوم وتأخر آخرون ، فاحضر اهل الخراج والتجار فطالبهم ، فدافعوه ، وشكوا الضيقة ، فامر باحضار الهدايا التي بعث بها اليه ، واحضر مأمور الصندوق فوزن ما فيها واجزي اثمانها عن اهلها ثم قال :

ـ يا قوم حفظت لكم هداياكم الى وقت حاجتكم اليها ، فادوا الينا مالنا .

فادوا اليه ما كان عليهم باقيا ، فانصرف عن مصر ، وليس على اهلها للخراج ولبيت المال درهم واحد ..

* ادارة الرشيد

ويقول المؤرخون في وصف الرشيد وادارته انـه كان من اشد الملوك معرفـة باسرار رعيته ، واكثرهم بها عناية ، واحزمهم فيها امراً ، وانـه كان يصطنع الرجال ويحـلم عن مساوىء تغتفر من رجاله ، ويسعى في عمران البلاد ويكف الاذى عن الرعية ، ويأخذ بايدي العلماء والبـاحثين ، ويجتمع اليهم ويأنس بهم ، ولما رأى ان ملكه في خطر من نفوذ البرامكة وزرائه وخاصة لانصراف الوجوه اليهم لكثرة ما احسنوا الى الناس ، ولاجماع القاصي والداني على حبهم ، حتى ساموا الخليفة او اربوا عليه في المكانة ، امر بالقبض عليهم وقتل جعفر ، وترك الناس يلفظون بمختلف الاسباب من امرهم .

وعمل الرشيد على تخفيف الضرائب عن الفلاحين ، ونظر في امرهم واحسن اليهم ، وفي الرسالة التي كتبها له قاضيه ابو يوسف في الخراج نموذج من هذه العناية ، وهذا الاهتمام.

رسالة ابي يوسف

قال ابو يوسف : وقد بلغـني ان عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحلُّ ، وانما ينبغي ان يتخير للصدقة اهل العفاف والصلاح ، فاذا وليتها رجلاً ووجد من قبله من يوثق بدينه وامـانته ، اجريت عليهم من الرزق

بقدر ما تجري، ولا تجري عليهم ما يستغرق اكثر الصدقة ، ويكون من يولى فقيها عالما مشاوراً لاهل الرأي مؤتمنا على الاموال ، اني قد اراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، اذا لزم الرجل منهم باب احدهم اياما ولاه رقاب المسلمين وجبـاية خراجهم، ولعله ان لا يكون عرفه بسلامة ناحيته ولا بعفاف ولا باستقامة طريقته ولا بغير ذلك ، وتقدم الى من وليت ان لا يكون عسوفا لاهل عمله ، ولا محتقراً لهم ، ولا مستخفا بهم ، ولكن يلبس لهم جلبـابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء ، من غير أن يظلموا او يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم والغلظة عـلى الفاجر ، والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم والعفو عن الناس ... فان كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانه يحمل على انه قد أُمر به وقد امر بغيره ، وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالي تعدٍ بظلم او عسف وخيانة لك في رعيتك واحتجان شيء من الفيء ، او خبث طعمته او سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وان تقلده شيئاً من امر رعيتك او تشركه في شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروّع غيره من ان يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : « بلغني عن ولاتك على البريد والأخبار في النواحي تخليط كثير ومحاباة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاة والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم

للناس ، وربما كتبوا في الولاة والعمال بما لم يفعلوا اذ لم يرضوهم ، وهذا مما ينبغي ان تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار . . . وينبغي ان لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجري لهم من الرزق من بيت المال وليدرَّ عليهم ، وتقدم اليهم في ان لا يستروا عنك خبراً ، فمن لم يفعل منهم فنكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البُرُد والاخبار في النواحي ثقات عدولا فلا ينبغي ان يقبل لهم خبر في قاض ولا وال ، إنما يحتاط بصاحب البريد على القاضي والوالى وغيرهما فاذا لم يكن عدلا فلا يحل ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله».

الرشيد وعامله على الأهواز

وانتهى الى علم الرشيد ان عامل الأهواز قد اقتطع مالا من مال البلد ، ولما سأله الرشيد أجاب : حلفت بأيمان البيعة أني قد نصحت وشكرت الصنيعة ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله لأصدقنك عن أمري : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك وفعلت ما يفعله الناصح لسيده ، وكنت اذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ، فاذا تقررت العطايا انفذت البيع وجعلت لي مع التجار فيه حصة ، فربما ربحت وربما وُضِعت ، الى ان اجتمع لي من ذلك ومن غيره في عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فاتخذت أزجاً[1] كبيراً عقد بالجص والآجر كأنه مجلس ، وجعلت بين يديه موضعا أقعد فيه ، وعبيت البدر شيئا بعد شيء في

(١) بيت .

الأزج ثم سددته ، وهو بحاله ما أشك ان العنكبوت قد نسجت على ما فيه ، فخذها وحوّل وجهك الى عبدك .

فقال الرشيد : بارك الله لك في مالك ، فارجع الى عملك ودار رعيتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يوسف في قيده قال له الرشيد : «وليتك دمشق وهي جنة بها غُدر تتكفأ أمواجها على رياض كالزرابي واردة منها كفايات المؤن الى بيوت أموالي ، فما برح بك التعدي لأرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر.

فقال: والله يا أمير المؤمنين ماقصدت لغير التوفير من جهة ولكن وليت أقواما ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا الى ميدان التعدي ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع باضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلا جرم ان أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتي .

ولما نكب الرشيد البرامكة ولى وزارته الفضل بن الربيع ، فلم يقم مقامهم ، ولا سدّ المكان الذي سدوا .

- وذكر الفضل بن مروان : ان امور البريد والاخبار في ايام الرشيد كانت مهملة ،وان مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليه ثابت الخادم ، وحدث ثابت هـذا ، ان الرشيد توفي وعندهم اربعة الاف خريطة لم تفض .

— ٤ —

الحالة الداخلية

سياسة الرشيد مع العلويين

كان الرشيد في اول امره كثير الرغبة في مصافـــاة العلويين والتقرب اليهم ، ويظهر لنا ان هذه الرغبة كانت عامة بين الناس ، وان جماعة كبيرة من الرأي العام كانت تؤيدها وتدعو اقرارها .

وليس ادلّ على ذلك من هذه القصائد التي كانت تعرض لهذه الناحية ومن دعوة الشعراء الى هذه الظاهرة وتأييدها ، مع امتداح الساعين اليها والقائمين بها .

وكان العباسيون يعلمون الى ذلك انهم انما وصلوا الى الخلافـــة بمساعدة ابناء عمهم من آل الرسول ، وانه لولا تأييد الشيعة العلوية لهم لما ظفروا بالخلافة ولا بالسلطان ...

وكان الرشيد كما يقول «الفخري» من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم و كرمائهم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة مدة خلافتـــه إلا سنين قليلة ، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشيــاً ، وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر ، وكان يحب الشعر

والشعراء ، ويميل الى اهل الادب والفقه ، ويكره المراء في الدين ، وكل هذه الصفات جديرة ان تحمل صاحبها على الجري على السنن القويمة والعمل الصالح ، ولذلك لا نرى كبير امر اذا رأينا الرشيد في اول ولايته يحاول استمالة قلوب العلويين بشيء من الاحسان اليهم ، فكان اول ما فعله ان رفع الحجر عمن كان منهم في بغداد وسيرهم الى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبدالله بن علي ، ولكنه سمح لوالده الحسن بالذهاب الى حيث يشاء ...

ولكن العلويين لا يسكتون عن حق يعتقدون انه لهم وانه الان في يد غيرهم ، فخرج على الرشيد يحيى بن عبدالله بن الحسن بن علي ، وكان قد نجا بنفسه في وقعة (فخ) في ايام الهادي وذهب الى بلاد الديلم ، فاشتدت شوكته بها وقوي امره ونزع اليه الناس من مختلف الامصار ، فاغتمّ الرشيد لذلك وندب لقتاله الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين الفاً من الجند ، وولاه جرجان وطبرستان والري وغير ذلك ، فتوجه الفضل نحو يحيى بجنده ، وكاتبه ولطف به وحذره وخوّفه ورغبه ، فمال يحيى الى الصلح وطلب امانا بخط الرشيد ، وان يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ، فكتب الفضل بذلك الى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده ، وكتب الأمان ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ، ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا ، فوجه الفضل بذلك كله الى يحيى .

فقدم عليه يحيى بن عبدالله وورد به الفضل بغداد .

وفي رواية اخرى ان يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده ، وانه قد اشتد في مطاردته ،

واقتفاء اثره ، طلب الامان من الفضل ،فامنه وحمله الى الرشيد ...

وفي سنة ١٧٦ ورد الفضل بن يحيى البرمكي بيحيى بن عبد الله العلوي بغداد ، فلقيه الرشيد بكل ما احب ، وامر له بمال كثير ، واجرى عليه ارزاقاً سنية ، وسمح للناس بزيارته ، وبلغ الرشيد الغاية في اكرام الفضل وتقديره ، خصوصاً ما تلطف به من امر التسليم بحيث حسم الخلاف بالتي هي احسن، وحفظ دماء جنده فلم يعرضها للتلف ، وكان الرأي العام في بغداد كما يظهر يؤيدون هذه السياسة ، وينادون بضرورتها ، وقد قال مروان بن ابي حفصة في ذلك ما يؤكد ان هذه الفكرة كانت عالقة في رؤوس الناس ، وانها لم تكن غريبة ولا بعيدة فقال :

ظفِرت فلا شلت يد برمكية رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين اعيا الراتقين التئامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فاصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم

ادريس بن عبدالله

وكان ادريس بن الحسن محمد هرب من وقعة« فخ »[1] وهو اخو يحيى ، فسار الى مصر ومنها اتجه الى بلاد المغرب ، ،دعا لنفسه فأيده البربر ، فأنشأ اول خلافة علوية ، وهي « دولة الأدارسة » .. وكان نزوله بمدينة (وليلي) سنة ١٧٢ هجرية ، وبويع في تلك السنة ، فهال امره الرشيد خصوصاً لما تقلد الخلافة ، وجاءه الخبر بكثرة جنوده وانه فتح بلاد تلمسان، وانه عازم على غزو افريقية ، فهمّ بارسال

(١) نشوء الدولة العباسية ...

جيش لحربه ، ولكن الشقة كانت بعيدة، ففتقت له الحيلة عندئذ ان يبعث اليه برجل من خاصته يقضي عليه ، فأرسل اليه رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير فقدم على ادريس بن عبدالله ، وتقرب اليه ، وأظهر الاخلاص له ، ثم دس له السم وولى هارباً سنة ١٧٧ ، ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً ، فانتظروا وضع حملها ، فوضعت ولداً ذكراً سمي ادريس على اسم ابيه وبايعوه بالخلافة ، واستمرت دولة الادارسة في المغرب .

وبذلك تم خروج اقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية ، وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي ، وبلاد المغرب مع تلمسان على يد ادريس بن عبدالله .

وكان من المفروض بعد هذه الحوادث ان يتنكر الرشيد على العلويين ويخشى شرهم ، وان يخاف امتداد شوكتهم ، خصوصاً وولده محمد الأمين كان صغيراً ، لا يستطيع مقارعتهم ولا محاربتهم فيما اذا اخذ الله الرشيد اليه .

وقد اخذ الرشيد موسى بن جعفر المعروف بالكاظم الى بغداد ، فأقام بها الى ان مات وهو السادس من ائمة الشيعه العلوية الامامية .

ومن هذا يتضح لنا ان الرشيد لم يكن يترك اماماً من ائمة العلويين وشأنه ، وانه كان ابداً يضع عليهم العيون ، لمعرفة اخبارهم ، والتعرف على اقوالهم ، وانه في الوقت نفسه كان يرى من حسن السياسة القضاء عليهم في حياته حتى لا يدهم اولاده بعد وفاته هم لا قبل لهم باجتنابه .

آمان يحيى

وكان الرشيد كما قدمنا قد كتب ليحيى بن عبدالله اماناً أشهد عليه الفقها، والقضاة وكبار بني هاشم، ثم ان الرشيد بعد مدة من استسلام يحيى بن عبدالله راح يسأل الفقهاء في هذا الأمان أصحيح هو أم غير صحيح.. فكان موقف بعض الفقهاء تأييد الأمان، وأقلهم قال بنقضه، فكان الرشيد والحالة هذه في حيرة من امره لايدري ما يفعل ... أينقض الأمان ام لا ينقضه ..؟

ولما كان البرامكة هم الذين استنزلوا يحيى بن خالد من معقله، وحصلوا له على الامان من الرشيد، فقد كان خصومهم يسعون بالنميمة بين الرشيد ويحيى بن عبدالله دائماً وابداً لان فى هذا إذلالاً للبرامكة من وجه، وارضاء للرشيد من وجه آخر ... أليس يريد الرشيد نقض الامان، فلمَ لا يؤيده في عمله هذا رجال البلاط من أصحاب الغايات ..؟

وكلما رقّ الرشيد ليحيى أثاروا في نفسه النميمة، فقد ذكروا ان يحيى بن عبدالله قال للرشيد:

– يا امير المؤمنين ان لنا قرابة ورحماً، ولسنا بترك ولا ديلم، يا امير المؤمنين، إنا وأنتم اهل بيت واحد، فأذكرك الله قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، علام تحبسني وتعذبني؟

فرقّ له هرون ... ولكن «الزبيري» - وكان حاكماً للمدينة ايام الرشيد، ومعادياً للعلويين - أقبل على الرشيد فقال:

– يا امير المؤمنين لا يغرك كلام هذا، فانه شاق عاص، وانما

هذا منه مكر وخبث ، ان هذا افسد علينا مدينتنا ، واظهر فيها العصيان .. فاقبل يحيى عليه وقال :

ــ افسد عليكم مدينتكم ، ومن انتم عافاكم الله ؟.

فغلب الرشيد ... الضحك حتى رفع رأسه الى السقف حتى لا يظهر منه ..

فقال الزبيري : هذا كلامه قدامك ، فكيف اذا غاب عنك يقول : « ومن انتم » استخفافاً بنا ..

فاقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن انتم ، المدينة كانت مهاجر عبدالله بن الزبير ، ام مهاجر رسول الله ، ومن انت حتى تقول « افسد علينا مدينتنا » ، وانما بأبائي وآباء هذا هاجر ابوك الى المدينة.

ثم اقبل على الرشيد فقال : انما الناس نحن وانتم ، فان خرجنا عليكم قلنا : « اكلتم واجعتمونا ، ولبستم واعريتمونا ، وركبتم وارجلتمونا ، فوجدنا بذلك مقالا فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالا فينا ، فتكافأ فيه القول ، ويعود امير المؤمنين على اهله بالفضل ، وان هذا ــ الزبيري ــ ما يسعى بنا اليك نصيحة منه لك ، وانما يريد ان يباعد بيننا ، ويشتفي من بعض ببعض ، والله يا امير المؤمنين لقد جاء هذا اليّ حين قتل اخي محمد بن عبدالله ، فقال :

ــ لعن الله قاتله ... وقال :

قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا ان الخلافة فيكم يا بني حسن

فاسودّ وجه الزبيري ... فاقبل عليه الرشيد فقال :

ــ اي شيء يقول هذا ؟

فقال : كاذب يا امير المؤمنين ما كان مما قال حرف .

وحلف الزبيري يميناً امام الرشيد ، فسأل الرشيد يحيى اذا كان لديه شاهد ..

فقال : لنا ... ولكن استحلفه بما اريد ؟

قال : فاستحلفه ..

فاقبل يحيى على الزبيري فقال : « قل انا بريء من حول الله وقوته... موكل الى حولي وقوتي ان كنت قلته »

فحاول الزبيري التملص من هذا اليمين فاجبره الرشيد ، فحلف ، فيقول الطبري : « انه اضطرب منها وارعد »

فلما خرج من عند الرشيد ضربه الله بالفالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرخون في صدد هذا الحادث روايات مختلفة خصوصاً حول موت الزبيري ، بسرعة وبحالة غريبة وكلها لا تعدُ هذا الذي نقلناه، ومع ذلك فيقال ان الرشيد قتل يحيى في الحبس ، ويقال انه لم يقتله ...

الرشيد وجعفر الصادق

ولما كان الرشيد سنة ١٧٩ في الحج ... ذهب الى المدينة زائراً ، فلما انتهى الى القبر الشريف وقال : السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم ...

افتخاراً على من حوله ، فدنا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب فقال : السلام عليك يا ابت ...

فتغير وجه الرشيد وقال : هذا الفخر يا ابا الحسن حقاً ...، ثم اخذه معه الى العراق فحبسه عند « السندي بن شاهك » فكان يقوم

الليل والنهار متعبداً مصليا حتى مات سنة ١٨٣ في حبسه ، وكان يلقب الكاظم لانه كان يحسن الى من يسيء اليه، كان هذا عادته ابداً.

ولما كان محبوساً بعث الى الرشيد رسالة قال فيها : انه لن ينقضي عني يوم من البلاء ، إلا ينقضي عنك معه يوم من الرخاء ، حتى ينقضيا جميعاً الى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون .

اضطرابات وحوادث

ومن الحوادث التي وقعت في ايام الرشيد قيام الخوارج عليه ، هؤلاء الخوارج ذكراً واعظمهم اثراً « الوليد بن طريف الشاري الشيباني » وكان بطلاً شجاعاً يقيم بالجزيرة بنواحي « نصيبين » خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ، ففتك بابراهيم بن خازم بنصيبين ، ثم مضى منها الى ارمينية ، ثم رجع الى الجزيرة سنة ١٧٩ ، واشتدت بها شوكته وكثر اتباعه ، بعد ان هزم للرشيد جيوشاً عدة فأهتم الرشيد بامره ، فوجه اليه « يزيد بن مزيد الشيباني » ، وهو ابن اخي « معن زائدة » فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره وفاقاً لخطة المهلب بن ابي صفرة في حرب الخوارج ايام الحجاج بن يوسف ،حتى تمكن منه في البراز فقتله ، وصاح بخيله فاحتزوا رأسه ، وكانت هذه الواقعة بالحيرتين على فراسخ من الانبار سنة ١٧٩ ، ثم وجه يزيد برأسه وبكتاب الفتح الى الرشيد .

وقد اشتهر هذا الخارجي في الادب العربي بالقصيدة التي رثته فيها الفارعة اخته فقالت :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً   كأنك لم تجزع على ابن طريف

خطر من المشرق

ومن الأحداث الداخلية في عهد الرشيد ما حدث من الاضطرابات في خراسان بسبب علي بن عيسى بن ماهان واليها واميرها من قبل الرشيد ، وكان يحيى بن خالد قد نصح الرشيد بعدم توليته فلم يفعل.

وكانت ولاية الرشيد لعيسى بن ماهان على خراسان سنة ١٨٠ هجرية ، فشخص اليها وظلم الناس وجمع مالاً عظيما ، ووجه الى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والأموال ...

فتحدث الرشيد الى يحيى بأمر هذه الأموال والهدايا فقال له يحيى: «احسب ان الهدايا ما اجتمعت له ، حتى ظلم فيها الأشراف واخذ اكثرها ظلماً وعدواناً ، ولو امرني امير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ ..»

فلما اشتد ظلم علي بن عيسى بن ماهان في خراسان كتب رجال من كبرائها ووجهائها الى الرشيد بأمره، فاعتزم عزله وابداله بسواه، ثم بلغه انه - أي عيسى - اجمع على خلافه فشخص الى الري من اجل ذلك فعسكر بالنهروان في جمادي الاول سنة ١٨٩ ، ثم سار الى الري ثم الى « قرماسين » ، ثم عاد الى الري بعد نحو اربعة اشهر ، حتى قدم عليه « علي بن عيسى » من خراسان بالأموال والهدايا والطرف ، واهدي بعد ذلك الى جميع من كان معه من ولده واهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم ، فعدل الرشيد عن عزله ورضى عنه ورده الى خراسان ، وخرج ، وهو مشيع له . (١).

---

(١) ولعل الرشيد أبقاه حتى لا يظهر بمظهر المخطىء في انتخابه امام البرامكة وغيرهم من رجال البلاط .

فلما عاد علي بن عيسى الى « مرو » ناقماً على كل من تكلم به وكتب بشأنه ، اخذ الناس بالشدة ،وقبض الأموال ظلماً ، وحصل في هذه الاثناء ان اعلن العصيان « رافع بن ليث ابن نصر بن سيار» فوجد الأرض خصبة لعصيانه - وان كان الذي حمله على العصيان انه تزوج بامرأة متزوجة لم يطلقها زوجها ولكنها اعلنت الشرك بالله بنصيحة رافع فحل لها في زعمها وزعمه التزوج بسواه - وتزوجها رافع، فلما علم الرشيد بذلك امر عامله « علي بن عيسى » بعقابه وان يفرق بينهما ، فحمل « رافع » لواء العصيان ، وهزم جيش « عيسي ابن علي ابن عيسى ماهان) ووثب بعامل سمرقند وقتله ، وغلظ امره،وأيده الناس بسبب سياسة علي بن عيسى ، حتى تمكن من قتل عيسى بن علي ابن امير خراسان الذي هزمه اولاً ، وكان علي بن عيسى بن ماهان ببلخ ، فلما سمع ما أصاب ابنه ، خرج عنها حتى اتى (مرو) مخافة ان يسير اليها رافع في اصحابه فيستولي عليها، وانتهب الناس اموالاً كان ابن علي بن عيسى قد دفنها في بستان داره ببلخ ...

ولما علم الرشيد بذلك ادرك خطأه ، وعرف ان سياسة عامله كانت السبب في انتقاض الناس عليه ، فعزم على خلعه ومصادرته ، فاحضر (هرثمة بن اعين) وهو قائد شجاع فقال له:

- اني لم اشاور فيك احداً ، ولم اطلعه على سري فيك ، وقد اضطربت عليّ ثغور المشرق ، وانكر اهل خراسان امر (علي بن عيسى) اذ خالف عهدي ونبذه وراء ظهره ، وقد كتب يستمد ويستجيش، وانا كاتب اليه فاخبره اني امده بك ، وأوجه اليه معك من الاموال والسلاح والقوة والعدة ، ما يطمئن اليه قلبه ، وتتطلع

اليه نفسه ، واكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضه ،ولا تطلعن عليه حتى تصل الى مدينة (نيسابور) ، فاذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه ان شاء الله ، وانا موجه معك (رجاء) الخادم بكتاب اكتبه الى (علي بن عيسى) بخطي ليتعرف ما يكون منك ومنه ، وهوّن عليه الامر ، ولا تعلمنه ما عزمت عليه ، وتأهب للسير ، واظهر لخاصتك وعامتك اني موجهك مدداً لعلي بن عيسى وعوناً له..

وهذا يدل على ان الرشيد لم يكن يثق بعلي بن عيسى ويخشى ان ينتقض عليه ، ويتفق مع الثوار ضده ، كما انه كان يخشى ان يبعث اليه بعض انصاره في بغداد بالخبر وبنقمة الرشيد ، فكانت هذه الحيلة التي اجراها حتى لا يعلم احد انه ارسل هرثمة للاقتصاص منه ، وانما ارسله مدداً له..

كتاب الرشيد الى هرثمة

واما كتاب الرشيد السري الذي امر هرثمة ان لا يفضه إلا في مدينة (نيسابور) فهذا نصه :

« هذا ما عهد هرون الرشيد امير المؤمنين الى هرثمة بن اعين حين ولاه ثغر خراسان واعماله وخراجه ، امره بتقوى الله وطاعته ورعاية امر الله ومراقبته وان يجعل كتاب الله اماماً له في كل ما هو بسبيله ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه اولى الفقه في دين الله واولى العلم بكتاب الله ، او يرده الى امامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له عَلى رشده...

« وامره ان يستوثق من الفاسق (علي بن عيسى) وولده وعماله

وكتابه ، وان يشدّ عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل ما يصح عليهم من خراج امير المؤمنين وفيء المسلمين ، فاذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين واخذ بحق كل ذي حق حتى يرده اليهم.. فان ثبتت قبلهم حقوق لامير المؤمنين وحقوق للمسلمين فدافعوا بها وجحدوها ان يصب عليهم سوط عذاب الله واليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي ان تخطاها ، تلفت نفوسهم وبطلت ارواحهم فاذا خرجوا من حق كل ذي حق اشخصهم كما تشخص العصاة ... من خشونة الوطأ وخشونة المطعم والشرب وغلظ الملبس مع الثقات من اصحابه الى باب امير المؤمنين ان شاء الله ... فاعمل ياهرثمة بما عهدت اليك فاني آثرت الله وديني على هواي وارادتي فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن امرك ، ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه الى امر يريبهم وظن يرعبهم .. وابسط من آمال اهل ذلك الثغر ومن امانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفتك ومن ولاك امره ان شاء الله ... هذا عهدي وكتابي بخطي وانا اشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً ، وكتب امير المؤمنين بخط يده ، لم يحضره الا الله وملائكته ..»

هرثمة في خراسان

ومشى هرثمة بن اعين الى خراسان في عشرين الف مقاتل ... وقد اختار لاعمالها رجالا من ثقاته واوصاهم بكتمان امرهم حتي لا يعلم احد بعزمه على خلع علي بن عيسى ورجاله، فلما وصل الى (مرو)

خرج اليه علي بن عيسى يستقبله ظناً منه انه قادم لمساعدته في حرب (رافع) ... فلما دخلا المنزل اطلعه هرثمة على كتاب الرشيد بخلعه واول كلمة منه تنبيء عن بقيته فأسقط في يده ، وبعد تلاوة الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد اولاده و كتابه وعماله ، ثم ذهب هرثمة الى المسجد الجامع فخطب الناس واخبرهم ان امير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهت اليه من سيرة الفاسق علي بن عيسى ، وما امره فيه وفي عماله واعوانه ، وانه بالغ من ذلك ومن انصاف العامة والخاصة والأخذ بحقوقهم اعدى موضع الحق ، وامر بقراءة كتاب امير المؤمنين في عهده عليهم ، فاظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم ، وعلت بالتكبير والتهليل اصواتهم ، وكثر الدعاء لامير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء ...

ثم صادر هرثمة جميع ما يملكه (علي بن عيسى) هو واولاده ، وكان قد قضى في خراسان اميراً عشر سنوات كاملات ، وارسل كل ذلك الى الرشيد وقالوا : « انه حُمل على ١٥٠٠ بعير » وكتب الى الرشيد يخبره بما صنع ، ولما استوفى ما عند علي بن عيسى ارسله هو واولاده الى بغداد في الاغلال .

وحاول هرثمة القضاء على ثورة (رافع) فلم يوفق ، ودعا استفحال امر الثورة الرشيد نفسه الى الذهاب الى خراسان في شعبان من سنة ١٩٢ هجرية .

ومما يصار الى ذكره في سياق هذه الثورة ، ان علي بن عيسى بن ماهان امير خراسان اتهم موسى بن يحيى البرمكي بانه السبب في اضطراب خراسان عليه ، واعلم الرشيد طاعة اهلها لموسى ومحبتهم

له ، وانه يكاتبهم ويعمل على الانسلال اليهم والوثوب معهم ، فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه واوحشه ، ثم ركب موسى ذنين ، واختفى عن غرمائه ، فتوهم الرشيد انه صار الى خراسان كما قيل له ، فلما صار الى الحيرة في حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه ، ثم اطلق سراحه ورضي عنه كما عرف الكذب عليه .

كتاب الرشيد الى علي بن عيسى بن ماهان

وكتب الرشيد الى عامله على خراسان علي بن عيسى كتاباً بخط يده هذه نسخة [١] :

« بسم الله الرحمن الرحم . يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت ابناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائي ان خالفت عهدي ، ونبذت وراء ظهرك أمري ، حتى عثت في الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته ، بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك ، وقد وليت هرثمة بن اعين مولاي ثغر خراسان ، وأمرته ان يشدد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا اخذكم به ، حتى ترده الى اهله ، فان أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله ان يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغيّر ، وبدّل وخالف ، وظلم وتعدى وغشم ، إنتقاماً لله

(١) انما ننشر صورة لهذا الكتاب ليعلم القارىء كيف كان يتبذل بعض الخلفاء والامراء في كتبهم ورسائلهم ...

عز وجل بادئاً، ولخليفته ثانيا، وللمسلمين والمعاهدين ثالثا، فلا تعرض نفسك للتي لا سوى لها، واخرج مما يلزمك طائعاً او مكرهاً.»

اضطراب في الشام

ولم تنج الشام من الاضطرابات والقلاقل ... ففي سنة ١٨٠ هاجت العصبية بين اهلها، وتفاقم امرها، فقال الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي:

ـ اما ان تخرج انت اليها، واما ان اخرج انا ..

فقال له جعفر: بل افديك بنفسي ..

وشخص جعفر يريد الشام من الرقة، يشيعه الرشيد، وخرج معه جميع من بحضرته من الوجوه والاشراف ..

ولما وصل جعفر الى الشام اصلح بين الناس، وقتل اهل الشقاق والمتلصصة منهم، ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً، وعادت الحالة فيها وادعة هانئة مطمئنة، وانتهى الاختلاف، وعمّ السلام ..

وكان سبب هذه الفتن التي وقعت في الشام سنة ١٧٦ وسنة ١٨٠ هذا الخلاف الذي كان ابداً يقوم بين اهل اليمن ومضر من عرب شمالي الجزيرة، وكان يقتل في هذه الفتن عدد كبير من الناس، فارسل عليهم الرشيد ابراهيم بن محمد المهدي والياً، ففكر ان يعمد الى سبيل جديد لقطع الاختلاف وتأليف القلوب، فرأى ان يلهيهم بقشور، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ولا يصدعها، فسار في استقبالهم على قانون من «التشريفات» او «البروتوكول» أرضاهم به وما تكلف شيئاً، فقد أمر حاجبه باحضار وجوه الحيين، وأمره

بتسمية أشرافهم ، وان يقدم من كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلا الناس من الجانب الأيمن مضرياً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضرى ومن دون المضرى يماني ، حتى لا يلتصق مضرى بمضرى ولا يماني بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل ان يطعم شيئاً : « ان الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب ، فجعل مضر عمومتها ، وجعل يمن خؤلتها ، وافترض عليها حب العمومة والخؤلة ، فليس يتعصب قرشي إلا للجهل بالمفترض عليه » ثم قال : يا « معشر مضر كأني بكم وقد قلتم إذا خرجتم لاخوانكم من يمن قد قدّم أميرنا مضر على يمن ، وكأني بكم يا يمن قد قلتم وكيف قدمكم علينا ،وقد جعل بجانب اليماني مضرياً وبجانب المضري يمانياً، فقلتم : يا معشر مضر ان الجانب الأيمن أعلا من الجانب الأيسر، وقد جعلت الأيمن لمضروالايسر ليمن، وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ألا ان مجلسك يا رئيس المضرية في غد من الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمانية في غد من الجانب الأيمن ، وهذان الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان في جهته متحولا عنه في غده الى الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً . » وبمثل هذه القوانين الادارية رجع السلام الى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية ومساوىء القبلية .

وحدث ابراهيم بن السندي قال :

« لما كان ابي بالشام والياً احب ان يسوي بين القحطاني اليمني - والعدناني المضري من شمالي الجزيرة وقال :

— لسنا نقدمكم إلا على طاعة الله عز وجل والخلفاء ، وكلكم

اخوة ، وليس للنزاري شيء ليس لليماني مثله » وكان يأكل مع الاشراف من هؤلاء ، والاشراف من اولئك ، ويسوّي بينهم في الاذي والمجلس ...

توسيع سلطة العمال

وفي عهد الرشيد صار توسيع سلطة بعض العمال ، ليستقيم امر البلاد ، خصوصاً سلطة ابن الاغلب عامل الرشيد على افريقية (تونس) على ان يؤدي كل سنة اربعين الف دينار الى الخزانة العامة ، وينزل عن المعونة التي كان سلفه يأخذها من خزانة مصر ، وقدرها مائة الف دينار ، وجعل الامارة لعقبه من بني الاغلب يتوارثونها .. فاصبحت افريقية بذلك مستقلة في داخليتها ، مرتبطة بالخلافة العباسية في امورها المهمة فقط ، فصغرت بذلك رقعة الدولة العباسية في افريقيا بعد استقلال الاغالبة ادارياً ، واستقلال دولة الادارسة في طنجه ـ اي المغرب ـ ودولة الامويين في الاندلس ؛ ثم الدولة الرستمية في (تاهرت) .. بحيث كانت افريقيا الشمالية باكثرها مستقلة عن العباسيين.

ولعل سبب هذه السياسة التي درج عليها الرشيد وايدها ، ان افريقيا كانت نائية بعيدة ، وان الاضطرابات كانت كثيرة فيها ، وانها كانت مرتبطة اسماً بالدولة العباسية واما فعلاً فلا ، ثم ان جنود الرشيد لم تكن تستطيع الذهاب اليها لبعدها ، وللوصول اليها كان يحتاج الجيش الى سبعة اشهر في الطريق ، والروم على الابواب ، والغزوات بينهم وبين الدولة العباسية مستمرة متواصلة ، فلم يكن بطوق الرشيد والحالة هذه ، ايفاد جيش عظيم ليخضد شوكة افريقية

وهي على هذه الحالة من بعد الشقة ، خوفاً من الاضطرابات القريبة من حدوده في الشرق والغرب .

وهناك من يقول من جهة اخرى دفاعاً عن سياسة الرشيد : انه اراد ان يجعل من افريقية سداً بينه وبين اعدائه من ملوك الدولة الاموية في الاندلس ، وانه ترك لبني الاغلب معالجة شؤون افريقيا والمغرب والاندلس وثوراتها واضطراباتها ، ليتفرغ الى شؤون مملكته الباقية وهي وسيعة عظيمة جداً تكاد الشمس لا تغيب عنها .

ويقـال في الوقت نفسه انه ـ اي الرشيد ـ لم يعهد بولاية افريقية لابن الاغلب إلا بعد ان استشار رجاله خصوصاً هرثمة بن اعين قائده، وكان قد ولي افريقية وخبر احوالها ..

وقد تولى الاغالبة قتـال (الاباضية) و (بني ادريس) وملكهم يومئذ بالمغرب، وفتحوا (صقلية) و(مالطة) وجزائر البحر ، ووسعوا بما فتحوا ملك الاسلام تحت علم الخلافة العباسية ، وعمرت افريقيا والجزائر التي فتحوها في عهدهم عمراناً عظيماً ...

قاضي القضاة

ومما يذكر بهذه المناسبة ويأتي في باب السلطات الواسعة ، ان قاضي الرشيد (ابويوسف) كان اول من دُعي في الاسلام قاضي القضاة، وكان قاضي المشرق والمغرب ، وكان القضاة يعينون باقتراحه .

وكان القاضي في العواصم لا يتناول اقل من الف دينار في السنة ، واجري على قاضي مصر مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر ،وهو اول قاض أجري عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القـاضي سبعة

دنانير كل يوم ،ثم صار ابو الجيش يجري عـلى قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجرون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض او من خراجها والجزية .

والرشيد لا يضن بالمال في سبيل الدولة ، والمال وحده لا يكفي الخليفة امر الفتوق التي تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته في تلافي شرها ، والرشيد على كثرة بذله المأثور خلف من المال ما لم يخلف احد مثله مذ كانت الدنيـا ، وذلك انه خلف من الاثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة الف الف وخمسة وعشرون الف الف دينار ... وقال ابن الأثير : كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا في بذل المال ... فإنه لم ير خليفة قبله كان اعطي منه للمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك ...

— ٥ —

السياسة الخارجية

تحصين الثغور

كانت العلاقات بين الروم والعرب ابداً مضطربة ثائرة ، فالروم يطمعون بالامصار التي اغتصبها العرب منهم ، والعرب يريدون المحافظة عليها ، ومحاربة الروم لاضعافهم حتى لا تقوم لهم قائمة ، ولا يشتد لهم حول ...

وكان من أهم اعمال الرشيد انه امر عماله بعزل الثغور الواقعة على الحدود العربية البيزنطية عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها جزءاً واحداً ، وسميت «العواصم» وجعل قاعدتها بلدة «منبج» .. واسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ ، وسبب تسميتها العواصم ، ان المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم ، وتمنعهم من عدوهم الروم اذا عادوا من الغزو ، وكان من هذه العواصم « دلوك » ، و « رعبان » و « تورس » و « انطاكية » و « تيزين » وما بين ذلك من الحصون ، ومن تلك المدن الشهيرة طرطوس ، وقد عمرت في زمن الرشيد على يد « ابي سليم فرج » الخادم التركي ونزلها الناس ...

وكان يغزو الروم صيفاً عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، ووصل سنة ١٧٥ الى اقريطية ، وفي سنة ١٨١ غزا الرشيد الروم بنفسه فافتتح عنوة حصن « الصفصاف » ، وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ انقرة ...

ولم يزل « عبد الملك » يرى الثغور وحربها ، وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ ، وولى بعده « القاسم بن الرشيد » فغزا الروم واناخ على حصن « قرة » ، وحاصره ، ووجه « العباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث » فأناخ على حصن « سنان » حتى جهدوا ، فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجـلاً من اسارى المسلمين على ان يرحل عنهم فاجابهم الى ذلك ، ورحل عن حصني « قرة » و « سنان » ...

وكان يملك الروم في ذلـك الوقت الملكة « ايريني » وكانت بالتنوب عن ابنها « قسطنطين السادس » منـذ سنة ٧٨٠ ، ثم استبدت بالملك دونه سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له ... وذلك لما رأته من الحاح المسلمين عليهـا بالحرب ، وعدم مقدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة ، وبين شارلمان من جهة اخرى ... وكلتا الدولتين تناوئهـا العداوة لان شارلمان كان يريد توسيع سلطانه واعادة الامبراطورية الرومانية الى مجدها السابق ...

نقفور والرشيد

وفي سنة ١٨٦ هجرية ٨٠٢ م ثارت عليها فتنة فانتزع (نقفور)

الاول الملك منها ٨٠٢ – ٨١١ م وكان ملكاً محباً للغزو ، تواقاً للفتوح ، فكان من اول اعماله ان عقد معاهدة مع شارلمان حددت فيها تخوم المملكتين ، ثم راح يكتب الى الرشيد الكتاب الآتي :

من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب ...

« ان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ – وهو اسم يستعمل في لعبة الشطرنج – واقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقاً بحمل امثاله اليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد الي ما حصل لك من اموالها ، وافتد نفسك بجزية عظيمة ، وإلا فالسيف بيننا وبينك »

فلما قرأ هارون الكتاب استفزه الغضب ، حتى هابه جلساؤه وخشي منه وزراؤه ... ثم دعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر الجواب الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من هرون امير المؤمنين .

الى نقفور كلب الروم .

« قد قرأت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام »

وشخص الرشيد من فوره في جيش عظيم الى بلاد الروم ففتح وغنم وافاد ، وظل هذا حاله يجوب بلاد الروم مدة سنتين غازياً فاتحاً هادماً للحصون امامه ، حتى طلب نقفور الموادعة والصلح على خراج يؤديه كل سنة ، فاجابه الرشيد الى طلبه وطلب ان تكون الغرامة ضعفي ما كانت تدفع الملكة سابقاً ، فاجابه نقفور الى ذلك ورجع الرشيد عائداً الى بلاده ، فلما صار (بالرقة) نقض

(نقفور) العهد وخان الميثاق .

وكان الذي امضى عهد الموادعة والصلح (القاسم) الابن الثالث لهرون الرشيد ، فدفع الروم الجزية ، وردوا الاسرى ...

والظاهر ان (نقفوراً) لما نقض العهد وخان الميثاق، كان يعتقد ان (الرشيد) لن يعود اليه حالاً لمعاقبته على نكثه العهد وخيانته، لان البرد كان شديداً قارساً ... والعرب كانوا يكرهون الحرب في الشتاء ، فتصير عنده فرصة يتمكن معها من ترتيب شؤونه وتعزيز جيشه ، وتقوية سلاحه ، حتى اذا عاد اليه الرشيد صاوله وساجله وقد تتأتى له الغلبة عليه .

وجاء الخبر الى رجال البلاط بنقض نقفور للعهد ، فما تهيأ لاحد اخبار الرشيد بذلك اشفاقاً عليه وعلى انفسهم من الكرة على ارض الروم في مثل هذا البرد الشديد، ولكن الضرورة كانت تقضي باخبار الخليفة...فاحتالوا ويقال ان يحيى بن خالد هو الذي احتال في ذلك بشاعر يكني ابا محمد عبدالله بن يوسف ، فمشى الى باب الرشيـــد وراح يقول :

نقض الذي اعطيته نقفور ... وعليــه دائرة البوار تدور
ابشر امير المؤمنين فانه ... فتح اتاك به الآله كبير
فلقد تباشرت الرعية ان اتى ... بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك ان تعجل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكور
اعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فاجرته من وقعها و كأنها ... باكفنا شعل الضرام تطير
نقفور انك حين تغدر ان نأى ... عنك الامام لجاهل مغرور
اظننت حين غدرت انك مفلت ... هبلتك امك ما ظننت غرور

فلما فرغ الشاعر من انشاده قال الرشيد :« اوَ قد فعل نقفور؟» وعلم ان الوزراء قد احتالوا له في ذلك ، فكر راجعاً من يومه على رأس جيش قدره مؤرخو الروم بمئة وثلاثين الف جندي وذلك سنة « ٨٠٦ » م والبرد شديد والشقة بعيدة حتى اناخ بباب « هرقلة » وهي معقل عظيم للروم ، فجمع هرون قواد جيشه وسألهم رأيهم في في حصارها واقتحامها ، فأجمع الرأي على حصار هرقلة لانها معقل الروم وبسقوطها تنهار شوكتهم ، فامر الرشيد منادياً ينادي في جنده بان امير المؤمنين قد اعتزم حصار المدينة ، وان على الجند ان يتهيئوا لحصارها ، وان تنصب كل فرقة خيامها حولها ، ورأى اهل المدينة ما اعتزمه الجيش العربي من حصار مدينتهم فأسقط في يدهم ، وحاول بعض ابطالهم الخروج من الحصون ومقاتلة بعض فرسان العرب ، فترك احدهم الحصن ونزل الى الميدان يطلب مبارزاً فخرج له ابن الجوزي ، وكان شديد البطش مشهوراً بين اقرانه بالفتك فغلبه وقطع رأسه ثم اقتحم المسلمون المدينة ، وقضوا على جندها واستولوا عليها وهدموا حصونها بعد ان حاصروها ثلاثين يوماً وفي ذلك يقول ابو العتاهية :

ألا نادت هرقلة بالخراب　　من الملك الموفق بالصواب
غدا هرون يرعد بالمنايا　　ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها　　تمر كانها قطع السحاب
امير المؤمنين ظفرت فاسلم　　وابشر بالغنيمة والاياب

ومشت قوات الرشيد بعد ذلك في ارض الروم تمعن في مدنها اقتحاماً ونصراً، فدمروا المدن وخربوا الارض واخذوا الاسرى من النساء والرجال وحملوا كل ما استطاعوا حمله من الاموال المنقولة، وبلغ الاميرال العباسي حميد الى قبرص ففتحها وانتصر فيها واخذ منها سبعة عشر الف اسير.

ثم سار الرشيد الى «الطوانة» وهي من ارض الروم فعسكر فيها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر، واخيراً طلب نقفور الصلح، وكان قد خسر في هذه الحرب اربعين الف مقاتل، وهلكت سفنه الحربية، وهدمت اكثر مدنه في آسيا الصغرى، فرضي الرشيد بالصلح وفرض عليه جزية عظيمة، وجزية مثلها عن نفسه وعن ولي عهده، ولم يسمح له باعادة بناء هرقلة، وكان فرض الجزية على الامبراطور البيزنطي من الاحداث العظيمة التي تدل على ما وصل اليه الرشيد من المنعة والعظمة والقوة.

قصة فتاة

ومما يذكر بهذه المناسبة ان العرب أسروا في مدينة هرقلة ابنة بطريك هرقلة نفسه، وكانت الفتاة من البارعات في الجمال فكتب نقفور مع اثنين من بطارقته الى الرشيد الكتاب الآتي:

لعبد الله هارون امير المؤمنين.

من نقفور ملك الروم

«سلام عليك، اما بعد ايها الملك ان لي اليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة، ان تهب لابني جارية من بنات

اهل هرقلة ... كنت قد خطبتها له فان رأيت ان تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليك » .

واستهداه ايضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته ...

فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت ، وزينت واجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه ، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور ، وبعث اليه بما سأله من العطر والتمور والزبيب وغير ذلك ، فسلم ذلك كله رسول الرشيد الى نقفور الذي ارسل معه هدايا كثيرة منها مئة ثوب من الديباج ومثلها من غيره ، واثني عشر بازياً، واربعة من كلاب الصيدوغيرها وبعض الدراهم الاسلامية ، واما مقدار الجزية فقدرت بثلاث مئة الف دينار .

هرون الرشيد وشارلمان

ولقد اشرف القرن التاسع الميلادي وهو يحمل اسمين عظيمين ، اسم هرون الرشيد في الشرق ، وشارلمان في الغرب .

ومن المؤكد ان هرون الرشيد كان اعظم سلطاناً ، واكثر حضارة ، وعمراناً من زميله الغربي ، لان العرب كانوا ينعمون بحضاره رائعة ، وعمران موفور ، وثقافة عريضة ، لم يكن لمملكة شارلمان بها عهد ولا معرفة .

ولكن الشيء المؤكد هو ان الامبراطوريتين العربية والشارلمانية اقتسمتا العالم المعروف في عهدهما اذا استثنينا اباطرة (القسطنطينية) والدولة العربية الناشئة في الاندلس ، خصوصاً بعد ان استقل

شارلمان في اوروبا يؤسس فيها دولته الجديدة الفتية ، بعد ان وضع البابا ليون الثالث التاج على مفرقه ، وامـــده بروح الكنيسة ، وسلطان المسيحية .

ومن المؤكد ان العلاقات السياسية والمعاهدات التي تبودلت بين شارلمان وهرون الرشيد انما دعت اليها الضرورة السياسية الملحة ، فقد كان شارلمان بحاجة الى صداقة الخليفة العبـــاسي ليكون له نصيراً ضد الامبراطورية البيزانطية اذا دعت الضرورة الى ذلك ، وكان الرشيد يريد الافادة من نفوذ شارلمان وجنده ضـــد اعدائه الأمويين في الأندلس .

ويذهب بعضهم الى القول بان العلاقات التي يزعمون وقوعها بين شارلمان وهرون الرشيد حديث خرافه ، وان احداً منهما لم يكن يعرف عن رفيقه شيئاً ، وان اخبار الهدايا التي تبادلها الطرفان ليست من الحقيقة في شيء ، وهو قول فيه شيء كثير من الاغراق في الشك لان احداً لا ينكر ان العلاقات الاقتصادية كانت موجودة بين شعوب الامبراطوريتين ، وان كثيراً من العرب والفرنسيين كان يركب البحر متاجراً بما في ارضه من صناعات وحاجيات ليست توجد في البلد الآخر ، هذا الى ان اهل مرسيليا وبعض اليهود... كانوا كثيراً ما يقصدون البلاد الاسلامية للتجارة وغير التجارة ..

واذا اضفت الى ذلك ان بيت المقدس هذه الارض المقدسة عند المسيحيين ... كانت تدفع بكثيرين من سكان الغرب الى الحج اليها وزيارتها آمنت ان العلاقات الدينية والتجارية كانت امراً واقعاً بين الشرق والغرب قبل ان يعرف الغرب شيئاً عن الشرق، وقبل

ان يعلم الشرق شيئاً عن الغرب ...

ولقد ترك كثيرون من القسس والحجاج مذكرات عن رحلاتهم الى الشرق وزيارتهم للاراضي المقدسة ... كما ان كثيراً من التجار الاوروبيين كانوا يستجلبون الاقمشة العربية والروائح العطرية والأخشاب وغير ذلك مما كان الغرب في حاجة اليه ...

سكوت مؤرخي العرب

ولكن الامر الذي يستدعي الغرابة هو عدم ذكر المؤرخين المسلمين لشيء من هذه العلاقات ... مع ان المؤرخين الافرنج قد تناولوها ببعض التفصيل والايضاح ، ولعل سبب ذلك ان هذه العلاقات لم تكن علاقات سياسية كبيرة الخطر بحيث تستدعي اهتمام المؤرخين المسلمين ، ثم ان امبراطورية شارلمان كانت بعيدة جداً ، وشارلمان نفسه هو الذي بعث بالرسل لخطب ود الرشيد رغبة منه في تنظيم مسألة الحجاج المسيحيين الى الارض المقدسة ، واما هرون الرشيد والمسلمون فلم يكن احد منهم يفكر في شارلمان ومملكته ، ولا كان واحدهم يعرف شيئاً عن خطورتها واهميتها في ذلك العهد .. ثم ان الفائدة في هذه العلاقات والروابط كانت تعود الى شارلمان اكثر منها الى هرون ، لان الاول كان يرغب في ان يكون له اسم كبير في البلاد الشرقية يفوق اسم ملك القسطنطينية ، وكان تواقاً ان يكون حامياً للمسيحية في البلاد المقدسة ... فكان يبعث الرسل الى هرون الرشيد ومعها الهدايا والتحف .

واذا اضفت الى ذلك رغبة شارلمان في ان يصادق الامبراطور

العربي الذي تختلف سياسته عن سياسة خصميه في الاندلس والقسطنطينية ، وان تكون هذه المصادقة مقدمة لوضع خطة سياسية يستطيع معها شارلمان تقوية نفوذه امـــام الامبراطورية الاموية في الاندلس والامبراطورية الرومانية في القسطنطية،رأيت في هذه المصافاة خطة سياسية خطيرة بعيدة الاثر .

وسكوت مؤرخي العرب عن هذه السفارات التي وقعت بين سنة ٧٩٧ - ٨٠٦ بين شارلمان والرشيد يستلفت النظر كما قدمنا ، لأنهم يذكرون بعض السفارات الخـــارجية الاخرى التي كانت اقل خطورة من هذه .

- فالعقد الفريد مثلاً يذكر الوفود السياسية التي تبودلت بين الامبراطورية البيزانطية والامويين ، ويذكر وفداً جاء من ملك الهند الى هرون الرشيد ، وحمل اليه بعض الهدايا ، فاستقبله هرون الرشيد بجفاوة .

الدبلوماسية القديمة والحديثة

والواقع ان الدبلوماسية الحديثة ترجع بالتأكيد الى التاريخ الذي نشأت فيه بعثات دائمة في القرن الخامس عشر الميلادي في ايطاليـــا للقيام باقرار بعض العلاقات الدولية .

واما القرون الوسطي فلم تكن تخلو من وفود تقتصر مهمتها على زمن محدود ، وغاية معينة واحدة ، يقوم بهـــا بعض رجال الدين والاشراف ، وهذه الاتصالات نشأ عنها ما نسميه اليوم (القانون الدولي) او (الدبلوماسية الحديثة) .

اما المعاهدات والاتفاقات فعقود بين دولتين او اكثر ، والفرق

الوحيد بين العقود الفردية والعقود الدولية هذه ، ينحصر في ان ليس ثمة قوة عدلية تسيطر على هذه الاخيرة ، واما عقود الافراد فيصار الى المحاكم عند الاختلاف فيها .

اما المعاهدات فقديمة ومتاحف الغرب تحوي نصوص معاهدات مكتوبة على الحجارة من عصر التوراة والاغريق والرومان ، وللعالم الاثري المشهور «برستد» مجموعة نفيسة لصور نصوص معاهدات قديمة جداً.

والتاريخ الاسلامي حافل بالمعاهدات كما ان مؤرخي الاسلام لم يبخلوا في بحث قواعد المعاهدات لديهم واصولها، والقلقشندي صاحب كتاب « صبح الاعشى » يفرد لنا ثلاثة ابواب من كتابه لبحث «الهدن» و « عقود الصلح والفسوخ الواردة عليهما » وهو فوق ذلك يذكر لنا امثلة عديدة منها ، وما يلزم الكاتب في تحرير اوضاعها وترتيب قوانينها واحكام عقدها ، فهو يبين لنا كيف تكون الهدن بين اهل الاسلام واهل الاديان الاخرى ، وكيف تكون عقود الصلح بين ملكين مسلمين،وان كل متعاقد يأخذ نسخة ويضع التاريخ الهجري عليها ، كما ان المفاسخة تكون من جانب واحد ومن الجانبين .. والذي يتأمل هذه القواعد الموضوعة للهدن وعقود الصلح والفسوخ يجد تشابهاً عظيماً بينها وبين ما يسير عليه واضعو المعاهدات في وقتنا الحاضر .

وفي الامثلة التي يذكرها «القلقشندي» يجد المتأمل تفصيلاً دقيقاً لكل شيء يجوز حدوثه بين المتعاقدين ورعاياهما مما يخص الشرائع الخاصة والشرائع العامة ، وفي غالب هذه المعاهدات تذكر اسماء المتعاقدين والمندوبين ثم يشهد الله على ما كتب ويضاف في بعض

الاحيان ان المتعاقدين صافحوا بعضهم بعضاً عنواناً للسلام بينهم وانهم تبادلوا النسخ المسجلة ، كما ان العرف جرى على تعيين المكان الذي تعقد به المعاهدة وتتم فيه المفاوضات .

بين شارلمان والرشيد

واما ما جرى بين الرشيد وشارلمان فلم يكن يضطرب في شيء مما قدمنا ، ولا كان الغرض من الوفود اقرار معاهدة ولا عقد اتفاق، كان الغرض اقرار سياسة التقرب والصداقة بين الامبراطوريتين.

وذهبت رسل شارلمان ومعها اليهودي اسحق الى عاصمة الرشيد.. فحجبها الرشيد مدة طويلة يقدرها بعضهم بشهر كامل ، فلما دعاهم اليه ودخلوا الى القصر ابصروا الرشيد جالساً على سرير من الذهب الابريز ، مرصع بالجواهر ، فوق سدة في صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من اساطين الايوان مجللتين بالوشي المنسوج بالذهب ، وقد وقف عند كل منهما وصفاء في ايديهم المناديل ، ووراء السدة من الجانبين حارسان بيد كل منهما سيف مسلول ، والسدة عبارة عن مظلة قائمة على عمد من الابنوس المنزل في العاج ، وسقفها من الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم جميلة ، وفي حاشيتيه من الامام والجانبين اهلة من الذهب مدلاة، في كل هلال منها اترجة ذهب مسبك يتدلى من كل اترجة درر كبار بينها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق على نظام بديع يبهر النظر ...

والرشيد جالس على السرير في السدة تحت الظلة ... وعليه ثياب يلبسها عند استقبال قادم من كبار الملوك او نوابهم ... اذا اراد

ارهابهم بعز الاسلام وجلال الدولة وابهة الخلافة ...

وقد لبسها في ذلك اليوم لاستقبال الوفد ، فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشح ، وبين ثناياها عقود من الجوهر بشكل سبحات تملأ الأخيلة بين تعاريج العمامة ... وفي مقدمها فوق الجبهة شبه طرة من الذهب المرصع بالجوهر والياقوت والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من خلال الذهب، وقد نظمت بها لآلىء بينها ثلاث لؤلؤات كبيض الحمام عند قاعدة العرف ، واما لباس الخليفة فكان في ذلك اليوم جبة سوداء ...

وأحسن الرشيد استقبال رسل شارلمان واكرمهم، وكان ذلك سنة ٨٠٠ ميلادية ، ثم سيّر الرشيد بدوره رسلاً من لدنه الى شارلمان ومعهم الهدايا والتحف، وساعة نفيسة هي الاولى من نوعها ، حتى ان رجال شارلمان لما رأوها لاول مرة ظنوا فيها شيئاً من السحر فهموا بكسرها لولا ان منعهم شارلمان عن ذلك ..

ويظهر انه على اثر ذلك تم الانفاق بين الرشيد وشارلمان على ان يحمي الاول الحجاج المسيحيين حين يزورون الارض المقدسة ، وقد كان المسيحيون الغرباء في ذلك العهد يلاقون ويلا من قطاع الطرق والامراء المتنفذين ...

وعاد شارلمان فارسل الى الرشيد وفداً آخر ، وارفقه بهدايا نفيسة من مصنوعات بلاده ، ولما عاد هذا الوفد بعد اربع سنوات قضاها في رحلته كان الاتفاق قد تم بين الرشيد ورسل شارلمان على الامور المختلف عليها ، ولا يبعد ان يكون قد تعداها الى معاهدات سياسية تتعلق بعلاقات الدولتين مع مملكتي الاندلس والقسطنطينية ...

وعاد الرشيد فارسل وفداً مثله الى شارلمان ، ضم اليه بعض رجال الدين المسيحيين ، وكان كبير الوفد رجلاً يسمى عبدالله ، وقدحمل الوفد معه كثيراً من التحف الشرقية وخيمة جميلةمن الوبر.

فلما مشى رجال الوفد في سهول اوربا كانت ارجاؤهـا تضوع من العطر الشرق ، ورائحة الشرق ، بما لم ير الغرب مثله الا بعد الف ومئة سنة... لما مشى فيصل ملك العراق الى باريس يدافع عن القضية العربية والاستقلال العربي ...

شطرنج هرون الرشيد

وتوجد في متحف الاوسمة في باريس علبة فخمة من العاج تحتوى احجار الشطرنج التي يقال ان هرون الرشيد اهداها الى شارلمان ملك فرنسا في عصره ...

وعلبة الشطرنج وبيادقه اي قطعه مصنوعة كلها من العاج، وقد شك بعضهم في حقيقة هذه الهدية وانها جاءت من بغداد بامر هرون ، ولكن بحث العلماء لنقوشها وخطها وطراز صنعتها اثبت انها مصنوعة في الهند حوالي اواخر القرن الثامن بيد صانع مسلم كتب اسمه على احد احجارها حيث قال : « من عمل يوسف » واضاف كلمة اخرى لا يمكن تفسيرها . وقد توفي هرون الرشيد سنة ٨٠٩ .

والذي يدعو الى الظن بانها مصنوعة في الهند ان فرسان الشطرنج وسائر اشخاصه مصنوعة على الطراز الهندي في ذلك الوقت ، وقد شرع المسلمون في فتح الهند منذ القرن السابع فكان منهم مسلمون يعيشون في الهند في عهد هرون الرشيد ، وعلى كل حال يؤخذ من

صنعة البنادق ان صانعها اما ان يكون هندياً واما انه عربي صنع احجاره على الطريقة الهندية ولكن الظن الاول ارجح ، ومما يدل على ان هذا الشطرنج قدصنع في القرن الثامن ان الفرسان لهم ركب على خيولهم وركاب السرج لم يخترع الا في الصين في القرن السابع .

والى ذلك الوقت كانت جميع الامم تمتطي خيولها بلا ركاب وهذا هو ما دعا(زينوفون)اليوناني الى القدح في الفرس لان راكبه لا يثبت على ظهره ، ومن المعقول اذا كان الركاب قد اخترع في القرن السابع في الصين ان يصل هذا الاختراع الى الهند وفارس في القرن الثامن ، ولكنه الى ذلك الوقت لم يكن قد عرف في اوربا ، فلما وصلت هدية هرون الى شارلمان اخذ الناس في تأمل بيادق الشطرنج فرأوا الفرسان ثابتين على ركبهم ، فصنعوا هم ايضاً ركابا للسرج وانتشر من ذلك الوقت ركوب الخيل، وصارت الفروسية صناعة الاشراف، حتى ان لفظة «فارس» في الفرنسية تعني «شريفاً» والقرون الوسطى في اوروبا هي قرون الفروسية التي يرجع اصلها الى حد كبير الى هدية هرون الرشيد التي عرف منها الاوروبيون ركاب الفرس ...

— ٦ —

سقوط البرامكة

العرب والفرس

يحتاج درس العلاقات بين العرب والفرس في العهد العباسي الأول الى كثير من الدقة ، والرجوع الى المصادر القديمة الموثوقة ، فيما يتصل بهذه العلاقات في السياسة والادارة ونظم الحكم ...

ففي عهد المنصور مثلاً..نراه يتجاهل العرب إلا قليلاً ، وينصح اخصاءه وانصاره وولده بالاعتماد على الموالى والفرس ، ولا يتورع في الوقت نفسه عن تقسيم الجند العربي الى مضري ويمني — وفاقاً للسياسة التي اتبعها الامويون قبله وكان في ذلك انهيارهم وخرابهم — وذلك لاضعاف العرب حتى لا يتحدوا ويؤلفوا جبهة واحدة ضد الدولة ...

والمصادر التاريخية التي بين ايدينا لا تؤيد هذه الظاهرة فحسب ، بل تقول ان المنصور اقام المنازل للجند ، وانه جعل لاهل خراسان منازل خاصة ، وفعل مثل ذلك بالجند المضرى ، والجند من اهل اليمن ... حتى لا يتصل جند بجند ، وحتي يظل الفرقاء الثلاثة في

خلاف دائم ، وعداء مقيم ...

ولما كان العرب والفرس اقوى عناصر الدولة العباسية ، فقد كان من المفروض وحسن السياسة ،مادام العباسيون يريدون الاعتماد على الفرس من اهل خراسان دون العرب ، ان لا يتجاهلوا العرب كل التجاهل ، لان دولة تعمل على اغضاب اكثر شعبها لا يمكن ان تحيا ولا ان تعيش .

ومع ذلك فقد سار المنصور في اول عهده على هذه السياسة الخرقاء في تقسيم الجند العربي ، وكان من مصلحته ومصلحة الدولة الناشئة توحيد صفوفهم ، والعمل على رفع العصبية القديمة من بينهم ، لأن اعتماد دولة عربية على الفرس دون غيرهم امر لا يقره المنطق ، ولا تؤيده السياسات الحكيمة .

والمنصور في الوقت نفسه مع حاجته الى الفرس لم يتورع عن قتل احد زعمائهم (ابو مسلم الخراساني) ... وكان من اثر قتله غير ثورة واحدة كثورة الراوندية في (الهاشمية) ... والمقنع الخراساني في خراسان ، ومع ذلك فقد انقضى عهد المنصور دون ما اضطراب كبير يشكل خطراً على الدولة ، ولعل مرد ذلك ان الدولة العباسية كانت في اول نشأتها ، وان احداً من الاحزاب والجماعات التي كانت تنكر سياستها ... لم تكن من القوة والمنعة بحيث تحدث في الدولة حدثاً كبيراً .

وكانت سياسة العباسيين ترمي الى اضعاف سلطان العناصر المختلفة ، واحلال الروح الدينية الاسلامية محل القومية ، ولكي تكون هذه السياسة ناجحة موفقة كان لا بد من الاعتماد في اقرارها

وتعزيزها ونشرها على العرب والفرس معاً ،وهما اقوى عناصر الدولة كما قدمنا - وذلك قبل ظهور الترك - وكان من اثر هذه الخطة ان استعمل المنصور وخلفاؤه من بعده ، الموالي من الفرس وغير الفرس في الوزارات ومختلف مناصب الدولة ، ولم يعتمدوا على الموظفين العرب إلا قليلاً ، وكان في هذا الاعتماد على الموالي ما يدل على وجود خطة مدبرة في نفوس الخلفاء العباسيين ترمي الى استخدام المسلمين في الوظائف بصرف النظر عن عصبيتهم ، على ان يكون هؤلاء الموظفون سلماً لاقرار سياسة الدولة (الاسلامية) ، وهي التي اعتمدها العباسيون واقرهـا خلفاؤهم خصوصاً الخليفة الاول والمنصور بعده وولده المهدي وابناه الهادي وهرون الرشيد ..

وهناك ظاهرة اخرى لا بأس من الاشارة اليهـا ، وهي انه لما استقر رأي الدولة العباسية عـلى ضرورة حفظ التوازن بين العرب والموالي خصوصاً الفرس منهم ... ولما كان الخلفاء العباسيون وآل هـاشم يمثلون العنصر العربي في الدولة ، فقد اصبح من المفروض ان يضموا اليهم من يمثل العنصر الآخر وهو الموالي...فاختاروا الفرس ليكونوا وزراءهم وقواد جندهم ، فحفظوا بذلك التوازن المنشود وارضوا الفرس بتوظيف وزرائهم منهم ، بحيث كان لهؤلاء الموالي المسلمين من يمثلهم في الدولة الجديدة ، ويحافظ على حقوقهم ، ويعمل على انصافهم ، بعد ان كان الامويون لا يفرضون للموالي وجوداً ، ولا يقرون لهم حقاً ..

سياسة البرامكة

وفي عهد هرون الرشيد كان البرامكة ـ وهم من الفرس ـ

رسل الاتفــاق الفارسي العباسي في الدولة العباسية ، فبواسطتهم اطمأن العباسيون الى اخلاص اهل خراسان لهم ، وبحسن ادارتهم وانصافهم و كرمهم استطاعوا تقريب كثير من العناصر اليهم .

ولا ادلّ على ذلك من هذه السياسة اللينة السلمية التي اتبعهــا البرامكة في عهد حكمهم ، فلما ثار « يحيى بن عبد الله » في الديلم مثلاً وارسل الرشيد الفضل بن يحيى لمحاربته، راح الفضل يتوسل بالسياسة دون السيف في ترغيبه بالاتفاق وحمله على ترك الخلاف والشقاق ، وقد وفق في ذلك كما ذكرنا قبلاً، ومما يذكر ايضاً انه لما ثارت العصبية في الشام ، ذهب « جعفر بن يحيى » اليها مسالماً لا محاربا ، فقضى على اهل الشقاق والخلاف، وامّن الناس ودعاهم الى الطاعة وترك الشقاق والمعصية ، ولم يغرق في القمع ، ولا تورط في الشدة ، فكان مصلحاً مسالماً اكثر منه محاربا ناقماً ...

ولما ولي « الفضل بن يحيى » خراسان سار فيهــا سيرة عدل وانصاف وحكمة وحسن سياسة ، ارضت النــاس وجعلتهم السنة شكر له ولادارته .

وتاريخ البرامكة كله عبارة عن تأليف القلوب، وتقريب الناس ولم الشعث ، وانصاف المظلوم ، مما يدل دلالة واضحة على ان سياسة الدولة في عهدهم كانت سياسة احسان وسماح ما كان الى ذلك سبيل وما لم يكن في الاحسان والسماح ما يثير ثورة ، وينفخ فتنة .

والثورة التي ظهرت في خراسان وحمل لواءها « رافع » وقعت بعد حكمهم ، وبسبب تولية الرشيد لعلي بن عيسى بن ماهان ، وكانت توليته بدون رأيهم ، فلما سار هذا في خراسان سيرة بطش وعنف

وتعذيب وأذلال ، كان اهل خراسان اسرع الى تأييد كل من يحمل لواء الثورة ، ولولا هذه السياسة التي اتبعها عامل الرشيد بينهم لما وجد «رافع» الثائر من يؤيده ويمشي معه ...

والواقع انه مهما كانت الاسباب التي حملت الرشيد على تمزيق شمل البرامكة واذلالهم ، فان سياسة هذه كانت ذات اثر بعيد في سياسة الدولة في عهده وبعد عهده ، وهي التي عجلت باستقلال خراسان عن الامبراطورية العباسية بعد سنوات من عهده ، وسبب ذلك انها اضعفت العلاقات التي كانت تربط اهل خراسان بالدولة العباسية ، وجعلت هذا الشعب الذي كان تواقاً الى الاستقلال ، ينصرف الى التفكير جديا في استقلاله وارتقاب الفرصة المناسبة لاقرار رغباته .

والبرامكة بالتأكيد كانوا من العوامل الكبرى في تثبيت الدولة عهد الرشيد وتنظيمها ، وهم بكرمهم وتأييدهم للعلم والثقافة والادب ، كانوا اصحاب اثر كبير في تغذية الحضارة العباسية ، كما ان سياستهم العادلة السمحة اسكتت الخصوم ، وقرّبت البعيد ، وأرضت المريب..

وبعد الخطأ الذي ارتكبه الرشيد في قتل البرامكة ، وقع في خطأ آخر لا يقل عنه خطورة ، وهو تقسيم الدولة بين ولديه الامين والمأمون ، وتقديم الامين على المأمون ، لا لسبب إلا لأن ام هذا عربية ، وام الثاني فارسية ، فكان من اثر ذلك ان زادت النفرة بين العرب والفرس ، فأيد العرب الامين ، وناصر الفرس المأمون ، لان الذي كان يجمع بين العنصرين ويسوسها بالرفق واللين وهم البرامكة قد ذهبوا ، وحلّ محلهم قوم لا يصلحون للحكم ولا للسلطان .

والبرامكة كما وصفهم « الفخري » : كانوا غرة في جبهة الدهر ، وتاجاً على مَفْرِق العصر ، تحدثت بمكارمهم الامثال ، وشُدَّت اليهم الرحال ، ونيطت بهم الامال ، وبذلت لهم الدنيا افلاذ كبدها ، ومنحتهم اوفر اسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، اسواق الادب عندهم نافقة ، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في ايامهم عامرة ، وأبهَّة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهيف ، ومعتصَمُ الطريد حتى قال فيهم ابو نواس :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتُمُ بني برمك من رائحين وغاد

والبرامكة من اشراف الفرس ، وليست لفظة برمك باسم « لشخص » وانما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهنة بمعبد « نوبهار » ببلخ ، وكان البرامكة يملكون الارض التابعة للمعبد ، ويبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها اربعة ، فكانت مساحتها اربعين وسبعمائة ميل مربع .

ويحيى بن خالد كان شخصية فذة في هذا العصر ، جمع الى حسن الأدب والنزاهة والكرم ، حسن الخلق واتقان العمل ، والنزاهة في الحكم ، وكانت اعماله وكلماته تصف نفسه اعظم وصف وأصدقه ، فقد سئل ما الجود؟ فقال : « عفوٌ بعد مقدرة » ، وهذا من احسن الوصف واجمله ، وقد وصفه الخليفة المأمون ، وهو من هو من حيث العلم والمعرفة فقال : لم يكن كيحيى بن خالد وكولده احد في البلاغة

والكفاية والجود والشجاعة.

وهذا هو يحيي الذي كان يجري على سفيان الثوري احد العلماء الاعلام في الاسلام ،ومن المشهورين في الورع والتقوى ، الف درهم في كل شهر ، فكان اذا صلى سفيان يقول في سجوده :

«الله ...ان يحيى كفاني امر دنياي ، فاكفه امر آخرته».

واما علاقة الرشيد بالبرامكة فليس افضل في وصفها من القول بان ام الفضل بن يحيي ارضعت الرشيد بلبـــان الفضل ، وأرضعت الخيزران ام الرشيد الفضل بلبان الرشيد ، والمصادر التاريخية التي بين ايدينا تؤيد كل التأييد الصداقة القوية والحب العظيم الذي كان بين الرشيد وبين هذه العائلة ، وقد نقلنا في فصل سابق قصصاً عديدة تؤكد هذا وتؤيده ، حتى كان الرشيد في عهد من العهود لا يستطيع مفارقة جعفر ،وحتى كان جعفر الغالب على امر الرشيد في كل امر ، فلو اراد شخص من آل هاشم ومن امراء بني العباس غرضاً كان يقصد جعفراً ويسأله قضاءه ، ولا يمشي الى الرشيد في كثير ولا قليل ، حتى اصبح جعفر في فترة من الزمن الآمر النـــاهي في الدولة العباسية.

جعفر والرشيد

ولما عاد جعفر البرمكي من سفرته الى الشام بعد الفتنة التي حدثت فيها ، دخل على الرشيد فزاده اكراماً واجلالاً ،ويصف لنا «الطبري» الاجتماع فيقول : لما دخل جعفر على الرشيد قبّل يديه ورجليه ، ثم مثل بين يديه فقال :

« الحمد لله يا امير المؤمنين الذي آنس وحشتي وأجاب دعوتي ، ورحم تضرعي ، وأنسأ في اجلي حتى اراني وجه سيدي ، واكرمني بقربه ، وامتنّ عليّ بتقبيل يده ، وردني الى خدمته ، فوالله ان كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي ، والمقادير التي أزعجتني ، فاعلم انها بمعاص لحقتني ، وخطايا أحاطت بي ، ولو طال مقامي عنك يا امير المؤمنين جعلني الله فداءك ، لخفت ان يذهب عقلي اشفاقاً على قربك ، وأسفاً على فراقك ، والله يا امير المؤمنين لو تعرض عليّ لي الدنيا كلها ، لاخترت عليها قربك ولما رأيتها عوضاً من المقام معك .. »

وبعد ان يصف له جعفر ما كان من امره في الشام يقول :

« ما خلق الله احداً من رعيتك ، ابعد من ان يطمع نفسه في قضاء حقك مني .. وما ذلك إلا ان اكون باذلاً مهجتي في طاعتك ، وكل ما يقرب الى موافقتك ، ولكني اعرف من اياديك عندي ما لا اعرف مثلها عند غيري ، فكيف بشكري وقد اصبحتُ واحد اهل دهري فيما صنعته فيّ وبي ، وكيف بشكري وانت كهفي دون كل كهف لي ، وكيف بشكري وانت تجدد من نعمتك عندي ما يستغرق كل ما سلف عندك لي ، ام كيف بشكري وانت تنسيني ما تقدم من احسانك بما تُجدده لي ، ام كيف بشكري وانت تقدمني بطولك على جميع اكفائي ، ام كيف بشكري وانت وليي ، ام كيف بشكري وانت المكرم لي ، وانا اسائل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصّراً عن تأدية بعضه ، ان يتولى مكافأتك عني ، بما هو اوسع له واقدر عليه ، وان يقضي عني حقك وجليل منتك ، فان ذلك بيده وهو القادر عليه »

ومن هذه الكلمة التي القاها جعفر بين يدي الرشيد نستطيع الحكم بان العلاقات بين الاثنين كانت وثيقة للغاية ، وان الرشيد قد افضى الى جعفر بكثير من الخدمات حتى جعله فوق اقرانه واهل زمانه ، بحيث لم يكن ليلقي في روع المرء ان الرشيد سيقتل جعفراً إلا لامر عظيم ، وخطر عميم .

ما هو السبب ؟

فما هو هذا الامر العظيم ، وما هو هذا الخطر العميم الذي احس به الرشيد فخافه على نفسه وملكه لينتقم من اصدقائه ووزرائه هذا الانتقام المرعب ؟

لقد كان من عادة الملوك في هذا العهد ان لا يطول عهد الوزير عندهم إلا بمقدار ، وقد طال عهد البرامكة في الوزارات والمناصب العامة الى سبعة عشر عاماً ...

وكان من عادة رجال البلاط ان يغلب عليهم الحسد لكل من سما مكانه ، وعلا شأنه عند الخليفة فلا يزالون يلغون في امره ، ويكثرون من التحدث بشأنه ، ويخوّفون الخليفة من شره حتى يقضي الله فيه بامره ..

لقد كان من امر الرشيد ان اخذ يخشى العلويين بعد ان ذهبت الاندلس من رقعة الخلافة ، واستقلت المغرب عن الدولة العباسية وقام بامرها احد العلويين ، بحيث اصبح للعلويين سلطان قائم ، وملك موفور ، لا يبعد ان يشكل خطراً على امصار الدولة العباسية الاخرى ، ان لم يكن اليوم فغداً ، وان لم يكن في عهد الرشيد ،

ففي عهد اولاده من بعده ، خصوصاً في عهد محمد الامين ولي عهده الذي كان اقرب الى السذاجة في امور الدولة منه الى الحزم والقوة وبعد النظر وحسن الادارة .

ام لعل سبب النكبة ادلال جعفر على الرشيد ادلالاً بلغ من الجرأة حداً يصعب على ملك من الملوك احتماله والسكوت عنه ...

والواقع ان سبب النكبة يعود لاسباب كثيرة لا لسبب واحد ، وقد تجمعت هذه الاسباب بعضها مع بعض عدة سنوات ، حتى طفح الكيل وكان ما كان ...

والمؤرخون يختلفون في الاسباب اختلافاً عظيماً ، ونحن لا نردها لسبب واحد ، وانما نقول انها لكل ما ذكرناه مجتمعاً ولعل اهمها السبب السياسي المتعلق بالعلويين وموقف البرامكة المعتدل منهم ، فقد كان البرامكة كما قدمنا اصحاب سياسة معتدلة عملت على التوازن بين الاحزاب في الدولة ، وهذه السياسة وان ارضت الرشيد في اول الامر إلا انها اخافته في آخره ، حتى اصبح يخشى على ملكه وولي عهده من العلويين بعده ، خصوصاً بعد ان اصبح لهم سلطان وشيعة في المغرب كما قدمنا ، وزاد في ذلك ان كثيرين من رجال البلاط كانوا يكرهون البرامكة ، وينكرون سياستهم حسداً منهم ، فكان من اثر ذلك ان اوسعوا واكثروا على الرشيد الكلام بامرهم ، ولما قرر الرشيد ابادتهم وعزلهم عن اعماله لم يكن بطوقه ان يضرب واحداً ويبقي الاخرين احراراً لعظيم مكانتهم وحب الناس لهم ، وخوفاً من فتنة يثيرونها بين الناس ، فقرر حبس الجميع واستخلاص اموال الجميع .. لأنه اذا كان هناك من نقمة على جعفر

مثلاً... فلم يكن هناك من تقصير يُنسب الى الفضل او الى يحيى ، ومع ذلك فقد شمل العقاب العائلة كلها ، وهو ما يدل على ان الرشيد لما اصدر امره بقتل جعفر اصبح مجبراً على اخذ الباقين بالشدة ، بعد ان تقطعت روابط الثقة بينه وبين كل افراد العائلة.

رأي ابن خلدون

اما ابن خلدون فيرى ان نكبة البرامكة مردها ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم اموال الجباية ، حتي كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على امره ، وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعُد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ،من وزارة و كتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ...

وكان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحموا فيها اهل الدولة بالمناكب ، لمكان ابيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهد وخليفة ، فتوجه الايثار من السلطان اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخفضت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء ، وتسربت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة اموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء ، وطوقوهم المنن ، و كسبوا من بيوتات الاشراف المعدم ،

وفكوا العاني ، ومُدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسنوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغصّوا اهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية ، حتى كان ممن سعى بهم أخوالهم وبعض انسبائهم».

الطويل الايام مملول

سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم ، فقال :

« والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، ولكن طالت ايامهم ، وكل طويل مملول ، والله لقد استطال الناس ايام الذين هم خير منهم ... لقد استطالوا ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وامنا وسعة اموال وفتوح ، واستطالوا ايام عثمان وعلي فقتلوهم ...

« ورأى الرشيد مع ذلك انس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه ، وقصدهم لهم في حاجاتهم ، والملوك تتنفس باقل من ذلك ، فتعنت عليهم وتجني ، وطلب مساويهم ، ووقع من البرامكة بعض الادلال والزهو وخاصة جعفر والفضل دون يحيى ... لان والدهما كان اكثر حكمة ، واصوب رأياً واحكم خبرة وممارسة للامور ، وسعي بعض اعدائهم بالوشاية الى الرشيد فستروا المحاسن واظهروا القبائح حتى كان ما كان » .

لقد قال هرون الرشيد يوم جلس على عرش الخلافة الى يحيى

ن خالد « لقد وليتك الوزارة يا ابي فافعل ما تشاء » .

وقال الرشيد هذا القول وهو فتى ما يعرف من امور الملك شيئاً ، ولا كان يهمه ان يقع على مزالق السياسة في عهده ، ومتاعب الادارة في زمنه ... ففضل ان ينصرف الى الاستمتاع بلذة الخلافة وامجادها ،وان يترك لوزرائه امر ممارسة الامور ومقارعة الحوادث...

ودارت الايام فاذا الشاب اليافع ... يصبح رجلاً مكتمل العقل مكتمل الحلم ، واذا به يرى نفسه بعيداً عن اعمال الملك غريباً عن شؤون الادارة ، واذا البرامكة قد وضعوا ايديهم على كل شيء واذا مصالح الدولة يصدرونها كما يريدون ، واذا الوشاية تسير سبيلها في قصره ، فيقع سمعه احيانا على ما يستشيط له غضباً ويضيق به صدراً ، ويلقي في روعه انه غريب في مملكته ، وان ليس له من الامر فيها شيء ، وتمتد الالسنة بالشعر وغير الشعر في هـــذا المعنى ، فيعود الرشيد الى نفسه ويقول يحاورها :

« الست الملك ، الست الخليفة ؟؟ »

وينظر الرشيد من شرفة قصرة الى قصور البرامكة ، فاذا بها تناطح السحاب ، واذا الناس يملأون بابهم .. واذا القواد والعظماء امام دورهم ، واذا اصحاب الصالح ما يعرفون سواهم ، فيستشعر شيئاً من الجزع والاضطراب ، ويستولي عليه شيء من الالم النفسي ، وتتوق نفسه الى ان يكون وحده لا شريك له في مملكته الواسعة الاطراف ...

ويرى المؤرخ المدقق ان هذه طبيعة الملك الاستبدادي ــ وهل كان عهد هرون الرشيد غير ذلك ــ يريد الملك فيه ان يكون

ذا السلطان الذي لا يشارك ، وصاحب الحول الذى لا يقاوم ، وكبار الرجال الذين يعينهم السلطان لادارة مصالحه وممارسة الحكم في مملكته لا يتفهمون هذه الظاهرة في الملك الاستبدادي كل الفهم ، فيذهب واحدهم يحـــاول مضاهاة مليكه ومشاركته في سلطته ، فتتنبه افكار المليك اليهم بما يلقيه اليه الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه ، واشتداد وطأتهم وعلو ايديهم ، فتدخل الغيرة في قلوب الملوك ، والغيرة بدء الشعور بعيوب اولئك الرجال ، فلا تزال بعد ذلك معايبهم تتجسم ، وهفواتهم الصغيرة تعظم ، وحينئذ يرى هذا الملك المستبد ان لا مناص من الايقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبؤ في الخطوب اشفاقاً من هذا السيف ان ينقلب عليه ، فيقتنص منه ملكه الذي دونه كل شيء ، وليس هذا خاصاً بالبرامكة والرشيد فحسب ، بل كل مستبد من الملوك هذا شأنه مع وزرائه واعوانه الذين يتجاهلون طباع الملك الاستبدادي فلا يقفون في سلطانهم عند ما لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان ، وليس ما حدث بين غليوم الثاني وبسمارك في العصر الأخير ببعيد ...

لقد كان البرامكة حقاً يمارسون السلطان ممارسة فعلية قوية ، وانهم اصبحوا من اصحاب الثروات الضخمة ، وان قصورهم كانت من الفخامة والجلال والابهة بحيث تضاهي قصور الرشيد والخلفاء ، وكانت مجالسهم تماثل مجالس الرشيد جلالاً وروعة ، وكان هذا حال سواهم من وزراء الغرب امثاله فوكه الافرنسي وغـــيره ، وقد تغير قلب مليكهم عليهم ، فلا عجب ان يتغير قلب هرون فيحاور احد انسبائه قائلاً :

ـ لقد افقرت اولادي واغنيت البرامكة ،قف على هذه الشرفة وشاهد قصورهم ، وانظر الى هذا الزحام على ابوابهم ، وقل لي من يكون الخليفة ، وما هو شأني انا ؟

ويقول له اسماعيل بشيء من الرقة واللطف :

ـ انك امير المؤمنين ، وما البرامكة غير بعض خدمك .. وكلمة تقولها يصبح كل ما يملكونه بين يديك .

ويعرف جعفر بما جرى في مجلس الرشيد من كلام فيمشي الى الرشيد قائلاً :

ـ ان القصر الذي بنيته هو لك يا مولاي ،لقد انشأته للمأمون وهو له بعد موتي ...

ويرضى الرشيد ... ويفارقه ما ألمّ به من غضب وحنق ،ويرجع جعفر الى مقامه في البلاط ..

والواقع ان نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هي حادثة قدمتها اسباب انتج بعضها بعضاً كما قدمنا ، ونحن نعرض الآن لبعض وجوه هذه الاسباب واحداً بعد الآخر .

ادلال جعفر

يقول الفخري : انه ظهر من جعفر والفضل من الادلال ما لا تتحمله نفوس الملوك ، فنكبهما الرشيد بذلك .

قيل ان جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشراب ، واحب الخلوة فاحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم ... وقد هيأ المجلس ولبثوا الثياب المصبغة ، وكانوا اذا جلسوا في مجلس الشراب

واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ... ثم ان جعفر بن يحيى تقدم الى حاجبه ان لا يأذن لاحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم ، اسمه عبد الملك بن صالح ،وجلس الجماعة يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان ...

وكان في بغداد رجل من كبار بني هاشم اسمه عبد الملك بن صالح بن علي بن عبدالله بن العباس ، شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه ان يجلس معه في مجالس المنادمة ، وبذل على ذلك اموالاً جليلة فلم يفعل ، فاتفق ان جاء عبد الملك بن صالح هذا الى باب جعفر بن يحيى في ذلك اليوم يريد ان يحدثه ببعض حوائجه ، فظن الحاجب انه هو عبد الملك بن صالح الذي أمره جعفر بن يحيى بالاذن له ، وألا يدخل غيره ، فاذن له ...

دخل عبد الملك بن صالح العباسي على جعفر بن يحيى وهو في مجلسه الذي اشرنا اليه ،فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ... وفطن ان القضية قد اشتبهت على الحاجب ، بطريق اشتباه الاسم ، وفطن عبد الملك بن صالح ايضاً لذلك ، وانه قد جاء في وقت ليست تصح فيه زيارة مثله...مع ما عليه القوم من المنادمة والشراب ...

وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى ، فراح عبد الملك يظهر الابتسام وقال :

— لا بأس عليكم ،احضروا لنا من هذة الثياب المصبغة شيئاً ..

فأحضر له قميص مصبوغ ، فلبسه وجلس يباسط جعفر وينادمه ويمازحه ، ثم قال :

— اسقونا من شرابكم فسقوه رطلاً ...

فقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ... ثم باسطهم ومازحهم وما زال يفعل ذلك حتى انبسط جعفر بن يحيى ، وسرّي عنه ما كان قد الم به من خجل ، وزال انقباضه وحياؤه ، وفرح بذلك فرحاً شديداً ثم قال لعبد الملك بن صالح العباسي : ما حاجتك ؟

فقال : جئت _ اصلحك الله _ في ثلاث حوائج ، اريد ان تخاطب لي الخليفة فيها ، اولها ان عليّ ديناً مبلغه الف الف درهم ، اريد قضاءه ، وثانيها اريد ولاية لابني ، يشرف بها قدره ، وثالثها اريد ان ازوج ولدي بابنة الخليفة فانها بنت عمه ...

فقال له جعفر بن يحيى : قد اعطاك الله هذه الحوائج الثلاث اما ، المال ففي هذه الساعة يحمل الى منزلك ، واما الولاية ، فقد وليت ابنك مصر ، واما الزواج فقد زوجه مولانا امير المؤمنين (العالية) ابنته على صداق مبلغه كذا و كذا فانصرف في امان ...

فراح عبد الملك الى منزله فرأى المال قد سبقه ...

واما من حضر من الندماء فقد تعجبوا من جرأة جعفر على الرشيد الى هذا الحد بحيث يقضي امره فيما يتعلق بشؤون الرشيد الخاصة وصلاته العائلية ، وكم كان عجبهم عظيما لما مشى جعفر في اليوم التالي الى باب الرشيد يقص عليه ما جرى ، ولا يخرج من عنده إلا وقد امضى الرشيد العقد والولاية ، و كتب له التقليد بمصر ، واحضر القضاة والشهود وعقد العقد ...

جعفر وصاحب مصر

وقيل ان جعفر بن يحيى كان بينه وبين صاحب مصر عداوة

ووحشة ... وكان كل منهما مجانباً للاخر ، فزوّر بعض الناس كتا عن لسان جعفر الى صاحب مصر ، مضمونه ان حامل الكتاب من اخص اصحابنا ، وقد آثر التفرج والنزهة في الديار المصرية ، فاريد ان تحسن الالتفات اليه ...

وبالغ المزور في الوصية ، ثم اخذ الكتاب ومضى الى مصر ، وعرضه على صاحبها ، فلما وقف هذا عليه تعجب منه وفرح ، إلا انه حصل عنده ارتياب وشك في امره ، فاكرم الرجل وانزله في دار حسنة ، واقام له ما يحتاج اليه ، واخذ الكتاب منه وارسل الى وكيله في بغداد وقال له :

« قد وصل الينا شخص من اصحاب الوزير بهذا الكتاب ، وقد ارتبت به فاريد ان تتفحص عن حقيقة الحال في ذلك ، وهل هذا خط الوزير ام لا ؟ »

وارسل كتاب الوزير صحبة مكتوبه الى وكيله ، فجاءالوكيل الى كاتب الوزير ، وحدثه بالقصة وأراه الكتاب ، فأخذ الكتاب ودخل به على الوزير وعرّفه الحال ، فلما وقف جعفر على الكتاب ، علم انه مزور عليه ، وكان عنده جماعة من رجاله ونوابه فرمى الكتاب عليهم وقال لهم :

ــ أهذا خطي؟

فتأملوه وأنكروه كلهم وقالوا : هذا مزور على الوزير .

فعرفهم جعفر صورة الحال ، وان الذي زوّر الكتاب موجود في مصر عند صاحبها ... وانه ينتظر عودة الجواب بتحقيق حاله وقال لهم :

ــ ما ترون ان يكون جوابي ... وكيف ينبغي ان نفعل في هذا ؟

فقال بعضهم : ينبغي ان يقتل هذا الرجل ... حتى تنحسم هذه المادة ، ولا يرجع احد يتجرأ على مثل هذا الفعل .

وقال آخر : ينبغي ان تقطع يمينه التي زور بها هذا الخط ...

وقال آخر : يجب ان يوجع بالضرب ويطلق سراحه ...

وكان أحسنهم محضراً من قال : ينبغي ان تكون عقوبته على هذا الفعل حرمانه ، وان يعرف صاحب مصر بحاله ليحرمه ، ثم يرجع خائباً ...

فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر :

ــ سبحان الله أليس فيكم رجل رشيد ..؟ قد علمتم ما كان بيني وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة ، وان كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس ان يفتح باب الصلح ، وقد قيض الله لنا رجلاً فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة ، وأزال بيننا تلك العداوة ، فكيف يكون جزاؤه ما ذكرتم من الاساءة ؟

ثم اخذ القلم وكتب على ظاهر الكتاب ما يأتي :

« الى صاحب مصر ، سبحان الله كيف حصل لك الشك في خطي؟ هذا خط يدي ، والرجل من أعز اصحابي ، واريد ان تحسن اليه وتعيده اليّ سريعاً فاني مشتاق اليه ، محتاج الى حضوره » .

فلما وصل الكتاب وفي ظاهره خط الوزير الى صاحب مصر كاد يطير من الفرح ... وأحسن الى الرجل غاية الاحسان ، ووصله بمال كبير وتحف جميلة ...

ثم ان الرجل عاد الى بغداد وهو أحسن الناس حالاً ، فحضر الى مجلس جعفر ، فلما دخل سلم عليه ووقع يقبل الأرض ويبكي ،فقال له جعفر : من انت يا اخي ؟

فقـــال : يا مولانا انا عبدك وصنيعتك ومزور كتابك الى صاحب مصر ...

فعرفه جعفر ، وبشّ في وجهه وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله وقال له :

ــ كم وصل اليك من صاحب مصر ؟

قال : مائة الف يا مولاي .

فقال جعفر : لازمنا حتى نضاعفها لك فلازمه مدة ، فكسب منه مثلها ...

الفضل والبرامكة

وكان الفضل بن الربيع من موالي العباسيين ، ولم يكن له في اول خلافة الرشيد شيء من نبــاهة الذكر ... لان الخيزران ام الرشيد كانت ترفض ان يولى منصباً ، ففي اليوم الذي توفيت فيه سنة ١٧٤ هجرية ، دعا به هرون فقال له :

« وحق المهدي اني لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني امي فاطيع امرها ، فخذ الآن الخاتم من جعفر » .

وكان الخاتم في ذلك العهد عبارة عن مرسوم ملكي بتولية فلان وغيره احدى وظائف الحكومة ...

فقال الفضل بن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب :

« انا أجلّ ابا الفضل عن ذلك بان اكتب اليه وآخذه، ولكن ارى ان يبعث به » .

وهذه مجاملة سببها ان الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء ، فاحب ان يتخذ عندهم يداً حتى لا يتخوفونه ...

وفي سنة ١٧٦ هجرية حصلت حادثة (يحيى بن عبدالله) الذي ثار على الرشيد في خراسان ، واستنزله الفضل بن يحيى من معقله بامان الرشيد ، فحضر الى بغداد واكرمه الخليفة ، حتى اخذ السعاة والوشاة يرفعون الى الرشيد من شؤون يحيى ما يريب ، وانه مايزال يدعو الى نفسه وانه ينتظر الفرص ، وكان اكثر الناس سعاية في ذلك (بكار ابن عبدالله الزبيري) ، وكان شديد البغض لآل ابي طالب ، فكان من وراء هذه السعايات ان حبس الرشيد يحيى وضيق عليه وحاول ان يقتله ، ولم يكن يمنعه عن ذلك إلا ان يتقول الناس في ذلك اشياء ... لما كتبه من كتاب الامان الذي استنزل به (الفضل) يحيى من معقله وحمله على القدوم الى بغداد والاقلاع عن الثورة ، فأراد ان يأخذ من العلماء قولا في ان ذلك الامان لاغ... فاستحضر ابا البختري القاضي ، ومحمد بن الحسن الفقيه ، فاما محمد بن الحسن فانه قال: «ما تصنع بالامان، لو كان محاربا ثم ولى كان آمناً».

ولم يكن هذا الجواب موافقاً لهوى الرشيد وغرضه فاحتمله على مضض ، واما ابو البختري فقال : ان الامان منتقض ...واقبل يعدّ وجوه نقضه، فقال له الرشيد :انت قاضي القضاة وانت اعلم بذلك... فمزق الامان ...

ويظهر ان الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعي

يحيى بن عبدالله عند الرشيد ... لان في قتله اذلالاً لمن كان السبب في استنزاله من معقله ، وكان الربيع يحاول ان ينال مركز البرامكة او يساميهم لما كان يرى من وفرة اموالهم وقوة سلطانهم ... والذي يؤيد هذه الفكرة ان الرشيد لما طلب يحيى اليه واخذ يحاجه ويتهمه ، التفت يحيى الى الفضل بن الربيع وقال له :

— هذا والله من آفاتك ...

ذيول مكروهة

كان من المفهوم بعد ذلك ان يجتهد البرامكة في تخليص يحيى .. وكان الرشيد قد طلب من جعفر ان يحتفظ به في قصره ..

وذكر ابو محمد اليزيدي ، وكان فيما قيل من اعلم الناس باخبار القوم ، قال :

« من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحيى البرمكي بغير سبب (يحيى بن عبدالله) فـلا تصدقه ، وذلك ان الرشيد دفع يحيى الى جعفر فحبسه عنده .. فدعا جعفر به ليلة من الليالي وراح يسأله عن شأنه وما يتهمه الرشيد به ... فأجابه يؤكد براءته مما نُسب اليه ، الى ان قال « اتق الله في امري ولا تتعرض ان يكون خصمك غداً محمداً صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما احدثت حدثاً ولا آويت محدثاً » .

فرقّ له جعفر وقال : اذهب حيث شئت من بلاد الله ..

قال : « وكيف اذهب ولا آمن ان اؤخذ بعد قليل ... فأرد اليك او الى غيرك ؟ »

فوجه معه من اداه الى مأمنه ...

وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عـين كانت له في دار جعفر فاخبر الرشيد بالامر ، فتظاهر الرشيد بغير مـا يضمر وقال له : مـا انت وهذا لا امّ لك ، فلعل ذلك قد جرى بامري .

فانكسر الفضل وذهب مكسوفاً ، وجاء جعفر الى القصر فتناول الطعام مع الرشيد الى ان قال له الخليفة :

ـ ما فعل يحيى بن خالد ؟ عبد الله

ـ قال بحاله يا امير المؤمنين في الحبس الضيق والاكبال ..

قال الرشيد : بحياتي ؟

فاحجم جعفر ... وكان من ادق النـاس ذهناً واصحهم فكراً فهجس في نفسه ان الرشيد قد علم بالامر فقال :

ـ لا وحياتك يا سيدي ، ولكني اطلقته وعلمت ان لا حيـاة به ولا مكروه عنده ..

فقال الرشيد : نعماً فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي ..

فلمـا خرج جعفر من القصر اتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ، ثم قال :

ـ قتلني الله بسيف المهدي على عمل الضلاله ان لم اقتلك ..

والواقع ان الرشيد وان كان يحتمل لجعفر كثيراً من الادلال إلا انـه لم يكن يتحمل له هذا وهو متعلق بملكه وبمصاير ولده من بعده .

ومن الغريب مـا ورد في هذه الحادثة من ان الفضل بن الربيع علم بمـا فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه ، وهذا

يبين كيف كان الفضل يترقب احوال جعفر ، حتي اختار من خاص خدمه جاسوساً يعلم اخباره ويلقى بها اليه ..

كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة في اخص صفات الوزراء ... وهي الاخلاص لملوكهم وذلك طعن قوي وصدمة شديدة ، حتى وقر في نفس الرشيد ان البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته ، وهذه التهمة اشدّ من تهمة الزندقة عند المهدي .. وهي التي استعملها والد الفضل بن الربيع ضد ابي عبيدالله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابن الوزير المذكور بتلك التهمة .

ملك ملول نافر

ولقد كان من الحق بعد ذلك ان تتجسم عيوب البرامكة لدى الرشيد ، وتظهر مثالبهم واثرتهم وما صاروا اليه من عظيم الجاه ، و كثرة الثراء ، وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واسترابه بهم ، واخذ يظن فيهم الظنون ...

روى بختيشوع الطبيب عن ابيه جبريل قال : « اني لقاعد في مجلس الرشيد اذ طلع يحيى بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا اذن ، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ... ردّ عليه رداً ضعيفاً ، فعلم يحيى ان امرهم قد تغير ، ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال :

— يا جبريل يدخل عليك وانت في منزلك احد بدون اذنك ؟

فقلت : لا ولا يطمع احد بذلك ...

قال الرشيد : فما بالنا يدخل علينا بدون اذن ؟

فقام يحيى فقال : يا امير المؤمنين قدمني الله قبلك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شيء كان خصني به امير المؤمنين ورفع به ذكري حتى ان كنت لا دخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض آزاره ، وما علمت ان امير المؤمنين كره ما كان يحب ، واذ قد علمت فاني اكون عنده في الطبقة الثانية من اهل الاذن او الثالثة ان امرني سيدي بذلك ...

قال : فاستحيا الرشيد ... وكان من أرق الخلفاء وجهاً وأطرق عينيه في الارض ما يرفع اليه طرفه ثم قال :

ـ ما اردت ما تكره ولكن الناس يقولون ...

قال جبريل : فعلمت انه لم يوفق الى جواب ، فقال هذا القول ثم امسك عنه وخرج يحيى ...

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن ابي جعفر قال : دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان لاستقباله ...

فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ان لا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار ... فلما دخل بعد ذلك لم يقم اليه احد ، فاربدّ لونه ..

وكان الغلمان والحجاب اذا رأوه اعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء فلا يسقونه إلا ان يطلبها غير مرة ...

وحدث يعقوب بن اسحاق عن ابراهيم بن المهدي قال اتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال : « اما تعجب من منصور بن زياد ؟ »

قلت : « فماذا » قال « سألته هل ترى في داري عيباً ؟ » قال « نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة »

قال ابراهيم فقلت له : « الذي يعيبها عندي انك انفقت عليها نحواً من عشرين الف الف درهم وهو شيء لا امنه عليك بين يدي امير المؤمنين »

قال : « هو يعلم انه قد وصلني باكثر من ذلك »

قلت : « ان الوشاة انما يأتونه قائلين ، اذا انفق على دار عشرين الف الف درهم فاين نفقاته واين صلاته واين غير ذلك ؟ وهذا قول له تأثيره عند الملوك . »

الرشيد وعنق جعفر

وحكى ان الرشيد قام عن مجلسه يريد الدخول الى بعض حجر قصره ، وان جعفراً اسرع فرفع له الستر ، وان الرشيد جعل يتأمل عنقه ، تأملاً شديداً ، فرآه جعفر وهو يتأمله فقال له :

ــ ما يتأمل امير المؤمنين ؟

قال الرشيد : حسن عنقك ، وحسن موقع «الجُرُبّان» منه .

قال جعفر : لا والله ، ما تأملت إلا موضع سيفك فيه ...

قال الرشيد : اعيذك بالله من هذا القول ... واعتنقه وقبله ...

ثم قال الرشيد للفضل : قاتل الله جعفراً ... وذكر له هذا الخبر ، وقال : ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منها ...

وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر يوماً بحضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يا لقيط ...

فقال الربيع : اشهد يا امير المؤمنين ...

فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا

امير المؤمنين وانت حاكم الحكام ؟

فاذا صح الخبر وله امثال ونظائر ، فليس بمستبعد ان يعمل الفضل لهدم البرامكة بكل ما لديه من المكر والحيلة ...

تخوف يحيى على جعفر

وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شيء ، وكان يحيى ابوه يعتُب على جعفر من دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته ، فذكر ان يحيى كتب الى جعفر يوما في شيء عتب عليه منه من هذا الخبر ، وانه كان يخشى عليه من كثرة صلاته مع الرشيد ...

وقال يحيى للرشيد غير مرة :

« يا امير المؤمنين اني اكره مداخل جعفر ، ولست آمن ان ترجع العاقبة عليّ في ذلك منك ، فلو اعفيته ، واقتصرت على ما يتولاه من جسيم اعمالك لكان احب اليّ ، وأولى بتفضلك ، وآمن عليه عندي » ...

فقال الرشيد : ليس لك هذا ، ولكن لك ان تقدم الفضل ...

وكان الفضل لا يشرب النبيذ ، فظن الرشيد انه يتيه عليه به ، فكان يعتُب عليه .

واذاً فقد كان يحيي لا يطيب قلبه بهذا الاتصال الدائم الذي كان بين الرشيد وجعفر ،ولا الى هذه الحفلات الليلية التي كان يحضرها جعفر مع الرشيد ، ولا هذا الشراب يتساقيانه معاً ... وكان يخشى على ولده من اثر ذلك ...

وهناك ما تذهب اليه بعض المصادر الشيعية[1] ، من ان السبب في نكبة البرامكة ، قتل جعفر ليحيى بن عبدالله العلوي ، المسجون عنده.

وخلاصة الحادثة ان جعفر البرمكي حزّ رأس حبيسه العلوي في يوم (النيوروز) واهداه الى الرشيد في طبق الهدايا ، فلما شاهد الرشيد رأس ابن عمه استعظم ذلك ، فقال له جعفر :

ـ ما علمت أبلغ في سرورك من حمل رأس عدوك وعدو آبائك اليك ...

كما يقال ان البرامكة كانوا السبب في حبس الامام جعفر الصادق وانهم كانوا يكرهون العلويين ويعملون على ابادتهم .

وليس فيما لدينا من اقوال المؤرخين الثقاة ما يؤكد هذه الأقوال..

(١) عمرة الطالب في انساب آل ابي طالب ص ٣١٦

- ٧ -

رأس جعفر

حديثان

حدث (جبريل بن بختيشوع) طبيب قصر الرشيد وكان صنيعة البرامكة فقال :

« انه دخل على الرشيد يوماً وهو جالس على بساط ، على مشرعة باب خراسان فيما بين الخلد والفرات — والخلد قصر المنصور — وام جعفر من وراء ستر فقال لي : قد وجدت ام جعفر شيئاً ، فأشر عليها بما تعمل به ...

قال : فبينا انا انظر في ذلك ارتفعت صيحة عظيمـــة ، فسأل الرشيد عنها ، فقيل له : يحيى بن خالد ينظر في امور المتظلمين ...

قال الرشيد : بارك الله عليه وأحسن جزاءه ، قد خفف عني ، وحمل الثقل دوني ، وناب منابي .. وذكره بجميل ..

ففعلت مثل ذلك ام جعفر ، ولم تدع شيئاً يذكره احد من الجميل إلا ذكرته به ، فامتلأت سروراً ، وقلت في ذلك مـــا امكنني ، وخرجت مبادراً الى يحيى بن خالد فخبرته بذلك فسرّ به ...

ومضت مدة ، ثم جاءني رسول الرشيد يوماً فصرت اليه ، فوجدته جالساً في ذلك المجلس بعينه ،وأم جعفر وراء الستر ، والفضل بن الربيع بين يديه ، وقد وجدت أم جعفر شيئاً فأمرني بتأمل علتها ، والمشورة بما اراه عليها ، فاني لفي ذلك اذ ارتفعت ضجة شديدة فقال الرشيد : ما هذا ؟

فقيل له: يحيى بن خالد ينظر في امور المتظلمين ...

فقال الرشيد : فعل الله به وفعل ، استبد بالامر دوني ،وامضاه على غير رأيي ، وعمل بما احبه دون محبتي ...

وتكلمت ام جعفر بنحو من كلامه ، فورد علي من ذلك ، ما أقام وأقعد ، ثم اقبل علي الرشيد فقال لي :

ـ يا جبريل ، انه لم يسمع كلامي غيرك وغير الفضل ، وليس الفضل ممن يحكي شيئاً منه ، وعلي وعلي لأن تجاوزك لأتلِفَن نفسك ...

فتبرأت عنده من ذكر شيء وانصرفت فلم اصبر ... وقلت :

ـ والله ان تلفت نفسي في الوفاء لم ابال ...

وصرت الى يحيي ، فعرفته ما جرى فقال لي :

ـ أتذكر وقد جئتني في يوم كذا من شهر كذا ، وانا في هذا الموضع فحكيت لي عن امير المؤمنين الحمد والثناء ، والشكر والدعاء ، وعن ام جعفر مثل ذلك ، فاعلم انه لم يكن مني في هذه الحال التي ذمني فيها شيء ، لم يكن مني في ذلك الوقت الذي احمدني فيه،ولكن المدة اذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوىء ومن اراد ان يتجنى قدر،فساء له حسن الاختيار .

المشاورة

ولما احس يحيى من الرشيد بالتغير ، ركب الى صديق له من الهاشميين فشاوره في امره فقال له :

ـ ان امير المؤمنين قد أحب جمع المال ، وقد كثر ولده ، نأحب ان يقتصد لهم الضياع وقد كُثّر على اصحابك عنده ، فلو فظرت الى ما في ايديهم من ضياع واموال ، فجعلتها لولد امير المؤمنين ، وتقربت بها اليه ، رجوت لك السلامة ولهم في ذلك من مكروهه ...

فقال يحيى : يا اخي جعلني الله فداك ، لأن تزول نعمتي احبّ اليّ من ان ازيلها عن قوم كنت سبباً في جلبها لهم ...

*

وقال اسماعيل بن صبيح :

كنت يوماً بين يدي يحيى بن خالد ، فدخل عليه جعفر ، فلما رآه اشاح بوجهه عنه ، وتكرّه رؤيته ، فلما انصرف قلت :

ـ اطال الله بقاءك ، تفعل هذا بابنك وحاله عند الرشيد حاله ، لا يقدم عليه ولداً ولا ولياً ..

فقال يحيي: اليك عني فوالله لا يكون هلاك هذا البيت إلا بسببه.

*

رأي ابن الاثير

واما ابن الاثير وهو من المؤرخين المعتدلين المنصفين فيرد الاسباب الى عدة عوامل :

١ ــ علاقة جعفر مع العباسة اخت الرشيد وتزوجه بها سراً وهو ما ينكره كثير من المؤرخين ..

٢ ــ اطلاق جعفر سراح يحيى بن عبدالله العلوي وقد أتينا على خبره .

٣ ــ بناء جعفر قصراً صرف عليه عشرين الف الف درهم ، فرفع ذلك الى الرشيد ، وقيل « هذا ما صرفه على داره فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك » فاستعظمه .

ويذكر (ابن الاثير) في سبب فساد حالهم قبل ذلك ــ اي قبل النكبة ــ ان (علي بن عيسى بن ماهان) سعى بموسى بن يحيي البرمكي واتهمه في امر خراسان ، واعلم الرشيد انه يكاتبهم ليسير اليهم ويخرجهم عن الطاعة ، فحبسه ثم اطلقه .

وكذلك نرى ان الرشيد تغير على البرامكة في اواخر ايامهم ، وظهر ذلك في مجلسه واحاديثه ، ولكن احداً لم يكن يظن انه ينتهي بما انتهى اليه ، وكل ما اعتقده الناس انه سيأمر بعزلهم عن وظائفهم واخراجهم من الدواوين .

وقام (الفضل بن الربيع) بما انتدب اليه من الوشاية بالقوم خير قيام ، وشايعه في ذلك كثيرون ، وكانت زوجة الرشيد (زبيدة) منحرفة عن جعفر لقيامه في امر المأمون وتأييده له ، خصوصاً وانه هو الذي حمل الرشيد على البيعة له بعد الامين ، لذلك كانت توغر قلب الرشيد على (جعفر) كلما سنحت الفرصة .

مقتل جعفر

واختلف المؤرخون في مقتل جعفر فقال صاحب كتاب

الوزراء والكتاب :

« ولم يزل (جعفر بن يحيى) مع الرشيد على حـــاله من الانس والانبساط الى ان ركب في يوم جمعة مستهل صفر سنة ١٨٧ الى الصيد ، وجعفر يسايره ، وانصرف ممسياً الى القصر الذي كان يـــنزله بالانبار ، وهو معه ، فضمه اليه وقال له الرشيد :

ــ لولا اني اريد الجلوس الليلة مع النساء لم افارقك..

فصار جعفر الى منزله ، واوصل الرشيد الرسل اليه بالالطاف الى وجه السحر ، ثم هجم عليه مسرور الخادم ، ومعه سالم وابن عصمة ، فحُمل وضربت عنقه ، وأُتي الرشيد برأسه ، وكانت سنه سبعاً وثلاثين سنه ، وانفذ الرشيد جثته الى مدينة السلام مع (هرثمة بن اعين) ومسرور وسلام الخادمين ، فقطعت بنصفين ، وصلبتا على الجسرين ، ونصب رأسه بمدينة السلام » .

ليلة

ويصف لنا كاتب افرنسي الحادثة فيقول :

« عاد امير المؤمنين من حجه في اوائل سنة ٨٠٣م ، وجدّ في العودة حتى بلغ الحيرة من اعمال ما بين النهرين وحط رحاله في الانبار ، وكان يحب المكان ويأنس به وله فيه قصر بديع فما لبث ان قرر الاستقامة فيه زمناً ، واعتزم الحجيج مثله على طلب الراحة... فما لبثوا ان حطوا الرحال ، وخلعوا ملابس الاحرام ، وراحوا يستأنفون حياتهم الماضية ولهوهم السالف .

وانقطع الخليفة في قصره وحده ، وانصرف ولداه الى منازلهما

ومعها ابناء يحيى البرمكي ، فكان الفضل مع الامين ، وجعفر مع المأمون ، واما يحيى بن خالد فقد سار الى بغداد حيث تنتظره مشاكل الملك وشؤون الدولة ، وما لبث الفضل ان لحقه ، لانه كان من الذين لا يستطيعون المضي في حياة العبث والاستمتاع بالحياة وقتاً طويلا ...

استنام الناس ورجال القصر والبلاط الى الراحة زمناً ، وقسموا نهارهم فيما بينهم ... فكان ما بين حاشيتيه للقنص والصيد ، وما بعد ذلك للمنادمة والراحة ، ولكن احداً لم يكن ينكر ان هناك في الافق شيئاً ... وان الخليفة كئيب في قصره ، منقطع عن الناس والنساء ... فما يجلس لاحد ولا يطلب احداً ...

ويتساءل الناس عن شأن الخليفة ووساوسه ، فما يوفقون الى معرفة الخبر ، ولا يدركون من امر هذه الظاهرة سراً ، وكان جعفر يمشي الى دار الخليفة في صباح كل يوم ، يحاول ان يحمل مليكه على الافصاح بما يدور في خلده فلا يوفق ، ولكنه كان يخرج ظاهر البشر بيّن الايناس ... لان الخليفة كان يظهر له من الاكرام والتقدير ما يجعله راضياً آمناً ...

وأسقط في يد جعفر صباح احد الايام وتملكه الخوف ، ذلك ان الخليفة امر بقتل احد كتابه ، ونفذ الامر حالاً ، فاسرع الى القصر فتلقاه الخليفة باسماً هادئاً ، فراح يسأله في شيء من الاضطراب كثير:

— مولاي ، هل صدر الامر بقتل (انس) حقاً ؟[1]

---

(١) هو انس بن ابي شيخ كان يكتبه لجعفر بن يحيى وكان ذكياً فهماً ، نقي الألفاظ ، جيد المعاني ، حسن البلاغة قتل قبل جعفر بن يحيى .

فقال الخليفة : نعم هذا صحيح .

— ولكن ما الذي صنعه انس يا امير المؤمنين ؟

— انه كان زنديقاً كافراً !

— يا امير المؤمنين ... هل خسرت رضاك وعطفك عليّ ؟

— ما هذا السؤال ، ان (انس) كان زنديقاً ، وهذا لا شأن له مع حبي لجعفر وعطفي عليه ...

وزاد الخليفة ندى فارسل لجعفر هدية ملكية ، فعاد لهذا ايناسه واطمئنانه .

ومضت على هذه الحادثة ايام ، وجعفر يشاهدمن ايناس الخليفة له وعطفه عليه ما جعله يتناسى هذه الحادثة ... ولا يشك في انها قليلة الاثر في حياته وعلاقاته مع مليكه .

وفي مساء يوم من شهر محرم ، عاد جعفر الى منزله تعباً بعد ان مضى نهاره في القنص والصيد مع الخليفة ، فوجـــد بعض صحبه ينتظرونه في القصر ، فامر باعداد ما يلزم للمنادمة ، وانتظم الجميع مجلساً ، كان كله انس ، وغناء ، ومرح ولهو وعبث وحديث رقيق .

ولكن هرون امير المؤمنين لم يكن ينسى جعفراً ، وهو في قصره فريد وحده ، مضطرب الفكر مشتت الخاطر ، يتمشى في غرفته جيئة وذهوبا ، يقف امام نافذته ينظر الى الارض حوله حيناً ، ويطلق بصره في الفضاء حيناً آخر ، ثم يذهب يصلي ، حتى اذا اشرق الفجر او كاد ، انتصب فجأة وكأنه اعتزم امراً ...

نادى الخليفة خادمه مسرور ، فمثل بين يديه فالتفت اليه قائلاً :

— مسرور ... هل تحس في نفسك القدرة على القيام بكل ما

يطلبه منك امير المؤمنين ؟

ـ انك لو امرتني يا امير المؤمنين ان اقطع رأسي امامك لفعلت!

ـ اذن فاذهب الى جعفر الوزير وأتني برأسه ...

تقبل مسرور امر اعدام وزير الخليفة وصديقه كما يتقبل امراً عادياً ... ولكنه وقف مضطرباً حائراً ... فظهر الغضب على وجه الخليفة وقال :

ـ ان من يتأخر عن تنفيذ اوامري يُقتل حالاً .

*

ذهب مسرور الى منزل جعفر ، فلما مثُل بين يديه قال له :

ـ ان الخليفة يريدك...

فاعتذر جعفر من اصدقائه وخرج مع مسرور ، ولكنه عجب لما شاهده يقيده ويشد وثاقه ، وظهر الفزع والخوف على وجهه لما أعلمه مسرور برغبة الخليفة وامره ، ولكنه عاد يتمالك نفسه ويقول:

ـ انك تمزح يا مسرور ... وامير المؤمنين يمزح ولا شك .

ـ ليغفر لي الله اذا كنت أمزح...اني ما رأيت امير المؤمنين اكثر جداً منه الليلة ...

ـ اذن فهو قد شرب شيئاً ...

ـ كلا كلا ، ان امير المؤمنين لم يشرب شيئاً منذ ايام ...

ـ هذا غير صحيح يا مسرور .. هذا غير صحيح ...

أسقط في يد جعفر وفارقته رباطة جأشه ، فسقط على الارض وأخذ يبكي ، ثم قال لمسرور :

ـ لقد كنت كثير العطف عليك يا مسرور ، أليس كذلك؟؟

ـ ان الله يعرف الحقيقة .

ـ اذن فأنت لا ترفض لي خدمة ؟

ـ اذا كانت لا تناقض اوامر امير المؤمنين ...

ـ اذن فخذني اليه ، فانه ان رآني عفا عني ...

ـ هذا مستحيل فهو لا يرغب في رؤيتك ..

ـ اذن فاذهب الى امير المؤمنين وقل له انك قد نفذت امره ، فلا بد له والحالة هذه ان لا يصدقك ، فتكون قد انقذت حياتي ...

ـ واذا أصرّ الخليفة على امره ؟

ـ تعود فتقوم بواجبك ...

عاد مسرور الى الخليفة ـ بعد ان سجن جعفراً في احدى الغرف ، فلما رآه هارون الرشيد وقبل ان ينطلق مسرور بكلمة قال له :

ـ ايها الخائن ... أين رأس جعفر ؟

فقال مسرور ببرود :

ـ انه في القصر يا امير المؤمنين ...

ـ اني اريد رأس جعفر هنا ... امــامي ... او يسقط رأسك انت ...

وعاد مسرور الى جعفر فاذا به يصلي فأخبره بما جرى ، فلم ينطق جعفر بكلمة ، وعادت اليه رباطة جأشه امام الموت ، فعصب عينيه وقال لمسرور :

ـ قم بواجبك ...

ورجع مسرور الى الخليفة بعد دقائق وبيده رأس جعفر ...

فما كاد يراه حتى صرخ صرخة حزن وفرح معاً ، ثم اندفع نحو مسرور قائلاً :

ـ اذهب عني ايها الجلاد ... إنك ترعبني ...

ويبقى امير المؤمنين وحده مع الرأس ... ينظر اليه طويلاً ، ثم يتملكه البكاء فيبكي ...

وفي ذلك الليل نفسه كانت الرسل قد أخذت طريقها الى بغداد والرقة وغيرها من المدن والعواصم ... ومعها الأوامر بالقبض على البرامكة واتباعهم وانصارهم وحجز املاكهم ...

رواية الفخري

« كان الرشيد قد حج سنة ١٧٦ ولما انصرف من حجه اتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ... ودعا موسى بن يحيى البرمكي فرضي عنه بعد غضبه عليه ، وفي غاية المحرم امر فيهم امره.. فقُتل جعفر وحبس يحيى وابناه... وصادر اموالهم كلها ، وقد حبس يحيى والفضل ومحمد في (دير القائم) وجعل عليهم حفظة ، ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم وجواريهم في اول الامر ، ثم اصدر امره بغير ذلك فضيق عليهم واشتد في الانتقام منهم » .

وشرح الفخري مقتل جعفر بما يأتي :

« كان الرشيد قد حج فلما عاد من الحج سار جعفر من الحيرة الى الأنبار في السفن وهو يشرب تارة ويلهو اخرى ، وتحف الرشيد وهداياه تأتيه ... وعنده بختيشوع الطبيب وابو زكار الأعمى يغنيه ، فلما كان المساء ــ في اواخر محرم سنة ١٨٦ هجرية ــ دعا الرشيد مسروراً الخادم وقال اذهب فجئني برأس جعفر ولا تراجعني ، فوافاه مسرور بغير اذن ، وهجم عليه وابو زكار يغنيه بهذا البيت :

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق او يغادي

فلما دخل مسرور قال له جعفر بن يحيى :

ـ لقد سررتني بمجيئك وسؤتني بدخولك عليّ بغير اذن..

فقال : الذي جئت له اعظم ،اجب امير المؤمنين الى مايريدبك.

فوقع على رجليه وقال له :

ـ عاود امير المؤمنين فان الشراب قد حمله على ذلك.. ثم قال: دعني ادخل داري فأوصي ...

فقال : الدخول لا سبيل اليه ، وأما الوصية فاوص بها ...

فأوصى جعفر ثم حمله الى منزل الرشيد ، وعاد به الى قبة وضرب عنقه ، واتى به على ترس الى الرشيد ، وببدنه في نطع ، ووجه الرشيد فقبض على ابيه واخوته واهله واصحابه وحبسهم بالرقة واستأصل شافتهم .

رواية (مروج الذهب)

« طالت مدة جعفر وغلب هو وابوه واخوته على المملكة .

« وكانت زبيدة زوج الرشيد من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها احد من نظرائها ، فراحت توغر صدره عليهم ، فلما استقام للرشيد الامر بقتلهم ، طلب اليه ياسراً خادمه ، وقال له :

ـ اني اندبك لامر لم ار محمداً ولا القاسم اهلا له ولا موضعاً.. ورأيتك به مستقلا ناهضاً فحقق ظني ، واحذر ان تخالفني .

فقال:يا امير المؤمنين لو امرتني انادخل السيف في بطني واخرجه من ظهري بين يديك لفعلت.. فمر بامرك فاني واللهمسرع .

قال : الست تعرف جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ؟

قال : يا امير المؤمنين وهل اعرف سواه ، او يُنكر مثل جعفر .

قال : فامض الساعة اليه ، فأتني برأسه على اي حالة تجده عليها . .

فارتجّ علي ياسر الكلام ... وأخذته رعدة ووقف لا يحير جوابا ...

فقال الرشيد : يا ياسر الم اتقدم اليك بترك الخلاف عليّ ... ؟

قال : بل يا امير المؤمنين ، ولكن الخطب اجلّ من ذلك ، والامر الذي ندبني اليه امير المؤمنين وددت لو اني كنت مت قبل ان يجري على يدي منه شيء ...

قال : دع عنك هذا وامض لما قد امرتك ...

فمضى ياسر حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه فقال له :

ـ ان امير المؤمنين قد امرني فيك بكيت و كيت ...

قال جعفر : ان امير المؤمنين يمازحني باصناف من المزاح فأحسب ان هذا جنس منه ...

فقال : والله ما افتقدت من عقله شيئاً ، ولا ظننته شرب شرابا في يومه مع ما رأيت من عبارته ...

قال جعفر : فان لي عليك حقوقاً لم تجد لها مكافأة وقتاً من الاوقات إلا هذا الوقت ...

قال : تجدني سريعاً .. إلا في مخالفة امير المؤمنين ..

قال : فارجع اليه فاعلمه انك قد نفذت ما امرك به ، فان اصبح نادماً كانت حياتي على يديك جارية ، وكانت لك عندي نعمة مجددة ... وان اصبح على مثل هذا الرأي نفذت ما امرك به في الغد ...

قال : ليس الى ذلك سبيل .

قال : فاصير الى مضرب امير المؤمنين حتى اقف بحيث اسمع كلامه ومراجعته اياك،فاذا ابديت عذراً ولم يقنع إلا بمصيرك اليه برأسي ..خرجت فأخذت رأسي ..

قال له : اما هذا فنعم ...

فمضيا الى مضرب الرشيد فدخل عليه ياسر فقال :

ـ قد أخذت رأسه يا امير المؤمنين ، وها هوذا بالحضرة ...

فقال له : ائتني به ... وإلا والله قتلتك قبله ...

فخرج فقال : اسمعت الكلام ؟

قال : نعم فشأنك وما أمرت به ...

واخرج جعفر من كمه منديلاً صغيراً ، فعصب بين عينيه ، ومد رقبته ، فضربها ياسر ، وادخل رأسه الى الرشيد ، فلما رأى الرأس بين يديه اقبل عليه وجعل يذكره بذنوبه ثم قال :

ـ يا ياسر ائتني بفلان وفلان ...

فلما اتى بهم قال لهم اضربوا عنق ياسر لانني لا اقدر ان انظر الى قاتل جعفر ...

وصف ابن الاثير

لما رجع الرشيد من الحج نزل الانبار اواخر محرم سنة ١٨٧ هجرية ، وارسل مسروراً الخادم ومعه جماعة من الجند الى جعفر ليلاً وعنده ابن بختيشوع الطبيب وابو زكار المغني ، قال مسرور فقلت له ـ أي الى جعفر ـ اجب امير المؤمنين ... فان الذي جئت له هو والله ذاك قد طرقك ...

وكان ابو زكار يغني :

فلا تبعد فكل فتى سيأتي   عليه الموت يطرق او يغادي

فوقع جعفر على رجلي يقبلها وقال : حتى ادخل فاوصي ...

فقلت : اما الدخول فلا سبيل اليه، واما الوصية فاصنع ماشئت.

فاوصى بما اراد ، واعتق مماليكه، واتتني رسل الرشيد تستحثني، فمضيت به اليه ، فاعلمته وهو في فراشه فقال :

ـ ائتني برأسه ...

فأتيت جعفر فاخبرته ...

فقال : الله الله ، والله ما امرك إلا وهو سكران ، فدافع حتى اصبح، او راجعه ثانية فعدت لاراجعه، فلما سمع الرشيد حسي قال :

ـ ائتني برأسه...

فرجعت اليه فاخبرته ـ اي الى جعفر ـ فطلب مني مراجعته ايضاً ، فرجعت فحذفني الرشيد بعمود كان في يده وقال :

ـ نفيت من المهدي ان لم تأتني برأسه لاقتلنك ...

فخرجت فقتلته ، وحملت رأسه اليه .

وامر الرشيد بتوجيه من احاط بيحيى وولده ، وجميع اسبابه ، وحوّل الفضل بن يحيى ليلاً فحبس في بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى في منزله ، واخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع ،وارسل من ليلته الى سائر البلاد في قبض اموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم وكل ما لهم ، ولما اصبح ارسل جيفة جعفر الى بغداد ، وامر ان ينصب رأسه على جسر ، ويقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر ، ولم يتعرض الرشيد لمحمد بن خالد وولده واسبابه ، لانه علم

براءته مما دخل في اهله ، وقيل كان يسعى بهم ...

ثم حبس يحيى وبنيه الفضل ومحمداً وموسى محبساً سهلاً ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ، ولا ما يحتاجون اليه من جارية وغيرها ، ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بسخطه وجدد له ولهم التهمة ، فضيق عليهم .

وكانت التهمة الموجهة الى عبد الملك بن صالح بن علي بن عبدالله ابن عباس انه يطلب الخلافة ...

بعد النقمة

وقال سهل بن هارون وكان من اخصاء البرامكة :

« اني لمحصل ارزاق العامة بين يدي يحيى بن خالد في داخل سرادقه وهو مع الرشيد بالرقة اذ غشيته سآمة واخذته سنة فغلبته عيناه فقال :

— ويحك يا سهل طرق النوم شفري عيني واطلت السنة خواطري في ذاك ؟

قلت : طيف كريم ان اقصيته ادركك،وان غالبته غلبك وان قربته روحك ... وان منعته عنك وان طردته طلبك ..

فنام برهة ثم انتبه مذعوراً فقال :

— يا سهل لامر كان ... ذهب والله ملكنا وذل عزنا وانقطعت ايام دولتنا .

فقلت : وما ذاك اصلح الله الوزير ؟

قال : كأن منشداً انشدني :

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا   انيس ولم يسمر بمكة سامر

فاجبته من غير روية ولا اجالة فكر :

بلى نحن كنا اهلها فابادنا   صروف الليالي والجدود العواثر

فوالله ما زلت اعرفها اليه واراها ظاهرة منه ، الى الثالث من يومه ، واني لفي مقعدي ذلك بين يديه اكتب توقيعات في اسفل كتبه لطلاب الحوائج اليه ، قد كلفني اكمال معانيها باقامة الوزن فيها اذ وجدت رجلاً ساعياً اليه حتى اومأ مكباً عليه ..

فرفع يحيى رأسه وقال : مهلاً ويحك ما اكتم خيراً ولا استر شراً ..

فقال له : قتل امير المؤمنين الساعة جعفراً ..

قال : اوَ فعلَ ؟

قال : نعم !!

فما زاد ان رمى بالقلم من يده وقال : هكذا تقوم الساعة بغتة ..

قال سهل : فلو انكفأت السماء على الارض ما تبرأ منهم الحميم واستبعد عن نسبهم القريب ، وجحد ولاءهم المولى ، واستعبرت لفقدهم الدنيا ، فلا لسان يخطر بذكرهم ، ولا طرف ناظر يشير اليهم ...

وصف سلاّم الابرش الحالة فقال :

« لما دخلت على يحيى في ذلك الوقت قال لي غير متغير ولا مضطرب :

ــ يا ابا سالم ، هكذا تقوم الساعة ..

ثم بلغه قتل جعفر فقال :

ــ الحمد لله ، فاني بفضل ربي واثق ، وبالخيرة منه عالم ، ولا يواخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، وما يغفر الله

اكثر ، ولله الحمد على كل حال .

البرامكة في السجن

كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وايامهم النضرة الحسنة من استخلاف هرون الرشيد الى ان قتل جعفر بن يحيى بن برمك سبعة عشرة سنة وسبعة اشهر وخمسة عشر يوما .

وكان الرشيد قد امر بحبس يحيى بن خالد وابنه الفضل وغيرهما بعد مقتل جعفر ، وسمح بان يكون لديهم خدمهم ولم يضيق عليهم ، وبعد مدة اصدر امره بالتضييق ووضعهم بالاكبال وغير ذلك ، وسبب هذا كما يقول بعض المؤرخين ما ألقي في روع الرشيد من ان عند البرامكة مال كثير مخبوء فراد معرفة مكانه ، وسألهم عن ذلك فانكروه فعمد الى التضييق ظنا منه انهم لا يلبثون ان يبوحوا بسر المال المخبوء ، وهو كثير كما يزعمون .

وذكر الخليل بن الهيثم وكان قد وكله الرشيد بيحيى والفضل في الحبس قال :

« اتاني مسرور الخادم ومعه جماعة من الخدم ، ومع خادم منهم منديل ملفوف فسبق الى نفسي ان الرشيد قد تعطف عليهم ، فقال لي مسرور :

ـ إخرج الفضل بن يحيى ...

فلما مثل بين يديه قال له : ان امير المؤمنين يقول لك : « اني قد امرتك ان تصدقني عن اموالكم فزعمت انك قد فعلت ، وقد صح عندي انك ابقيت لك اموالاً ، وقد امرت مسروراً ان لم تطلعه عليها

ان يضربك مائتي سوط » ...

فقال له الفضل : فعلت وصدقت والله يا ابا الهاشم ...

فقال له مسرور : يا ابا العباس ارى لك ان لا تؤثر مالك على مهجتك ، فاني لا آمن ان انفذ ما أمرت به فيك ان اتي على نفسك ..

فرفع الفضل رأسه الى السماء وقال له :

ـ يا ابا الهاشم ما كذبت امير المؤمنين ، ولو كانت الدنيا لي وخيرت بين الخروج منها ، وبين ان اضرب سوطاً لاخترت الخروج منها وامير المؤمنين يعلم وانت تعلم ، انا كنا نصون اعراضنا باموالنا وكيف صرنا اليوم نصون اموالنا منكم بانفسنا ، فان كنت امرت بشيء فامض له ...

فامر مسرور بالمنديل فنفض فسقط منه اسواط بأثمارها ، فضرب مائتي سوط ، وتولى ضربه اولئك الخدم ، فضربوه اشد الضرب الذي يكون بغير معرفة فكادوا يأتون على نفسه ، فخفنا عليه الموت .

فلما ذهب عنه مسرور قال الخليل بن الهيثم لوكيله المعروف بابي يحيى :

ـ ان هنا رجلا قد كان في الحبس وهو بصير بالعلاج لمثل هذا فسر اليه واسأله ان يعالجه ...

فذهب الوكيل الى ذلك الرجل فقال له :

ـ العلك تريد ان اعالج الفضل بن يحيى فقد بلغني ما صُنع به..

قال : نعم اياه اريد .

قال : فامض بنا اليه حتى اعالجه ...

فمضيا الى الفضل بن يحيى وعالجه الرجل حتى شفي من الم الضرب..

ثم قال الفضل لابي يحيى الوكيل :

— قد احتجت الى عشرة الاف درهم فسر الى المعروف بالسناني

- فان له عليه اياد كثيرة - واعلمه بحاجتي اليها ...

فاتيت (السناني) بالرسالة ، فامر بحمل المال الى الفضل فلما صارت عنده قال الفضل :

— يا ابا يحيى احب ان تمضى بها الى هذا الرجل الذي عالجني وتعتذر اليه وتسأله قبول ما وجهت به ...

قال ابو يحيى : فمضيت اليه فوجدته رجلاً فقيراً يجلس على حصير وحوله اثاث رث ...

فقال : ما حاجتك يا ابا يحيى ؟

فاعتذر اليه هذا عن الفضل وذكر ضيق الامر عليه واعلمه بما وجه به اليه ...

فامتعض الرجل حتى افزعه وقال : عشرة آلاف ...

وجهد ابو يحيى كل الجهد ان يقبلها فلم يفعل ... فمضى ابو يحيى الى الفضل فاعلمه بما جرى ...

فقال له : استقلها والله احب ان تعود الى (السناني) ثانية وتعلمه اني احتجت الى عشره آلاف درهم اخرى... فاذا دفعها اليك فسر بالسكل الى الرجل ...

فذهب ابو يحيى الى السناني وقبض المال وذهب به الى الرجل فابى ان يقبل شيئاً منه وقال له :

— لو كانت عشرين الف دينار ما قبلتها ...

فرجع ابو يحيى الى الفضل يحدثه بالخبر فقال له :

— حدثني باحسن ما رأيت او بلغك من افعالنا ؟

فجعل يحدثه حتى قال له الفضل :

ــ دع عنك هذا فوالله ان ما فعله هذا الرجل احسن من كل ما فعلناه في ايامنا كلها ...

وجاء في كتاب الوزراء والكتاب : انه اقيم لولد يحيى ما يحتاجون اليه من مطعم ومشرب وملبس ولم يقيد احد منهم ،وقيد جميع كتابهم ، وقهارمتهم وحاشيتهم ، واسبابهم ، ولم يحبس يحيى ، وبقي في منزله موكلًا به .

الرشيد ورأس جعفر

ولما قبض الرشيد على البرامكة جميعهم واودعهم الحبس ، قفل الى بغداد راجعاً وفرّق البرد الى الامصار بقبض اموالهم وغلاتهم ، وامر برأس جعفر فنصب على جذع على رأس الجسر مستقبل الصراط فلما دنوا من بغداد طلع الجسر الذي فيه وجه جعفر لهم اولاً واستقبلهم وجهه واستقبلته الشمس فوالله لكأنها تطلع من بين حاجبيه،فلما نظر اليه الرشيد كأنه قنيء شعره وطلي بنور بشره ، اربدّ وجهه وغض بصره فقال عبد الملك بن الفضل :

ــ لقد عظم ذنب لم يسعه عفو امير المؤمنين .

فقال الرشيد واغرورقت عيناه حتى لعرفنا الجهش في صدره .

ــ من يرد غير مائة يصدر بمثل دائه ومن اراد فهم ذنبه يوشك ان يقوم على مثل راحلته .

ثم امر بالرأس ان يحرق وهو يقول :

ـ اما والله لئن ذهب اثرك لقد بقي خبرك ولئن حط قدرك

لقد علا ذكرك .

اموال البرامكة

وامر الرشيد بضم اموالهم فوجد من العشرين الف الف التي كانت مبلغ جبائهم اثني عشر الف الف قد قسمت اسماً ، ورزمت رزماً هدية من البرامكة الى بعض رجال الادب او طلاب الحاجة ، او صدقة لمحتاج ... وهذا دليل على تناهيهم في الكرم واغراقهم في السماح .

وفي كتاب الوزراء والكتاب : انه وجد ليحيى خمسة آلاف دينار ، وللفضل اربعين الف درهم ، ولم يوجد لموسى شيء ، ولا لجعفر شيء ، ووجد لمحمد بن يحيى سبع مائة الف درهم ، وكان بخيلاً جداً .

وفي كتاب اخبار الخلفاء : انه وجد لجعفر بن يحيى بركة في داره التي في سويقة جعفر ، فيها اربعة آلاف دينار ، وزن كل دينار مائة دينار ودينار ..

رأي الناس في امر الرشيد والبرامكة

وفي اخبار الوزراء والكتاب : ان الرشيد سأل مسروراً عما يقوله الناس فيما فعله بالبرامكة فقال :

ـ اخبرني عما وجدته عند البرامكة من المال والجوهر ؟

فقال مسرور : ما وجدت لهم شيئاً من ذلك ..

قال الرشيد : كيف وقد نهبوا مالي وذهبوا بخزائني ؟

فقال مسرور : انفقوا كل ذلك بالمكارم ..

فقال الرشيد : فما يقول الناس فينا وفيهم ؟

فتردد مسرور ، فحلف له الرشيد لا يغضب عليه اذا قال الحق ، فقال :

– يقول الناس انك لم تف لهم ، وانك طمعت في اموالهم ..

ام جعفر والرشيد

وابرزت حرم يحيى بن خالد والبرامكة الى دار البانوقة ابنة المهدي فعشن من صدقات من كان البرامكة يتصدقون عليهم ، وصار من موجدة الرشيد فيما لم يعلم من ملك قبله على آخر ملكه ..

وكانت ام جعفر بن يحيى قد ارضعت الرشيد مع جعفر وكان الرشيد قد ربي في حجرها وغذي بحليبها ... لأن امه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها ويكرمها ويتبرك برأيها ، وكان قد آلى على نفسه وهو في كفالتها ان لا يحجبها ، وان لا تستشفعه لاحد إلا شفعها .. وآلت عليه ام جعفر ان لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا تشفعت لاحد لغرض دنيا ..

قال سهل بن هارون : فكم اسير فكّت ، ومهم عنده فتحت ، ومنغلق منه فرجت ، واحتجب الرشيد بعد قدومه ، فطلبت الاذن عليه من دار (البانوقة) ، ومشت بوسائلها اليه فلم يأذن لها ، ولا امر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها محتفية في مشيتها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال :

ـ ظئر يا امير المؤمنين بالباب في حـالة تقلب شماتة الحاسد الى حنين الوالد ، وشفقة ام الواحد ..

فقال له الرشيد : ويحك يا ابن الفضل .. اوساعية ؟

فقال : نعم اصلح الله امير المؤمنين حافيه ..

فقال : ادخلها يا عبد الملك.. فرب كبد كريم غذتها ، وكربة كشفتها وعورة سترتها ..

قال سهل: فوالله ما شككت يومئذ في طلابها واسعافها بحاجتها..

فلما دخلت ونظر اليهـا داخلة محتفية ـ اي حافية ـ قام هو بدوره محتفياً حتى تلقاهــا بين عمد المجلس .. واكب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم اجلسها معه ، فقالت :

ـ يا امير المؤمنين أيعدو علينا الزمان ، ويجفو عنا خوفاً منك الاعوان ، ويحردك بنا البهتان ، ويوسوس لك بأذانا الشيطان،وقد ربيتك وأخذت برضاعي لك الامان من دهري ؟

فقال لها : وما ذاك يا ام الرشيد ؟

فقالت له : ظئرك يحيى ... وابوك بعد أبيك ولا ارشحه بأكثر مما عرفه به امير المؤمنين من نصيحته له واشفاقه عليه وتعرضه للحتف في شأن الهادي اخيه ..

فقال : يا ام الرشيد قدر سبق وقضاء حم وغضب من الله نزل..

قالت : يا امير المؤمنين ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ...

فقال الرشيد : صدقت فهذا مما لا يمحوه الله ...

فقال : الغيب محجوب عن النبيين ... فكيف عنك يا امــير المؤمنين ؟

فأطرق الرشيد يسيراً ثم قال :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما انا ليحيى بتميمة يا امير المؤمنين وقد قيل:

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قوله جلّ جلاله : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . »

فأطرق هرون قليلاً ثم قال :

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن اليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت : يا امير المؤمنين :

ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتني يمينك فانظري اي كف تبدل

قال الرشيد : رضيت ...

فلما رأت ام جعفر ان الرشيد صرح بمنعها ولاذ عن مطلبها ، أخرجت له حقاً من زمردة خضراء فوضعته بين يديه فقال الرشيد :

ـ ما هذا ؟

ففتحت عنه قفلاً من ذهب فأخرجت منه بعض آثار للرشيد وهو صغير ... وقد غُمر ذلك كله بماء المسك ، وقالت :

ـ يا امير المؤمنين أستشفع اليك وأستعين بالله وبما صار معي من كريم جسدك .. وطيب جوارحك ليحيى عبدك وظئرك .

فاخذ الرشيد جميع ذلك فلثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى اهل المجلس .. ومضى البشير الى يحيى فلم يظن إلا ان البكاء رحمة عليه ...

فلما افاق الرشيد من بكائه رد جميع ذلك في الحق ، وقال :

- ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها ...

فقالت : ويأمرنا ايضاً ان نحكم بالعدل وقال تعالى : واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ...

فقال لها : وما ذاك يا ام الرشيد ؟

قالت : أما أقسمت لي به يا امير المؤمنين ان لا يحجبك عني حاجب ؟

فقال : احب ان اشتريه ولك الحكم فيه ...

قالت : برضاك على من لم يسخطك ...

قال : يا ام الرشيد أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟

قالت : بلى يا امير المؤمنين ... انت لأعز عليّ وهم أحب اليّ ..

قال : فتحكمي في ثمنه بغيرهم ...

قالت : قد وهبتكه وجعلتك في حل منه ...

وقامت عنه فبقي الرشيد مبهوتاً لا يحير جوابا ، وخرجت عنه ، فلم تعد اليه ...

ام جعفر بعد النكبة

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي دخلت على والدتي بعد نكبة البرامكة فوجدتها وعندها امرأة متكلمة ، فقالت لى :

- أتعرف هذه ؟

قلت : لا ...

قالت : هذه ام جعفر بن يحيى ...

فأقبلت عليها بوجهي احدثها واعظمها ، ثم قلت لها :

- يا اماه ما أعجب ما رأيت ؟

فقالت : يا بني لقد أتى عليّ عيد مثل هذا ، وان على رأسي اربعمائة وصيفة ، ولقد أتى عليّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلدشاتين أفترش احدهما وألتحف الآخر ...

قال: فدفعت اليها خمسمائة درهم ففرحت جداً بها ، ولم تزل تختلف الينا حتى فرق الدهر بيننا .

*

وسئلت ام جعفر في رواية اخرى ، وذلك بعد نكبتهم وهي بالكوفة في يوم اضحى : ما أعجب ما رأيت ؟

فقالت : لقد رأيتني في مثل هذا اليوم وعلى رأسي مئة وصيفة ، لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الاخرى وحليها، وانا في يومي هذا أشتهي لحماً فما اقدر عليه .

البرامكة في السجن

ويظهر ان الرشيد كان يتفقد البرامكة في السجن ، وانه أمر من أوكله بهم ان ينقل له كل اخبارهم وأحاديثهم ، ونراه في فترة من الزمن يأمر بان ينقل اليهم الطعام كل يوم من مائدته ...

وكتب يحيى بن خالد الى صديق له وهو في السجن، وقد كتب اليه يسأله عن حاله ، فوقع في كتابه : أفضل الناس حالاً في النعمة من استدام مقيمها بالشكر ، واسترجع فائتها بالصبر .

ولما نُكب يحيى كتب الى الرشيد :

« ان كان الذنب يا امير المؤمنين خاصا ، فلا تعُم بالعقوبة، فان

لي سلامة البريء ، ومودة الولي » .

فوقع في حاشية كتابه : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

ويقال ان الرشيد تحسر في آخر ايامه على ما فرط منه في أمرهم ، وخاطب جماعة من خواصه ، بانه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم الى حالهم ، وكان كثيراً ما يقول :

ـ حملونا على نصحائنا و كفاتنا ، واوهمونا انهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا الى ما ارادوا منا ، لم يغنوا عنا شيئاً ..

وكان ينشد :

أقِلُّوا علينا لا ابا لابيكم
من اللؤْم او سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا

ويزيد صاحب كتاب الوزراء والكتاب : ان الرشيد تأكد اخلاص البرامكة له وندم كل الندم على قتل جعفر وحبس اهله ..

وفاة يحيى

وتوفي يحيى بن خالد في المحرم سنة ١٩٠ هجرية ، وسنه اربع وستون ، فجأة من غير علة تقدمت ، فاغتم الرشيد غماً شديداً وقال :

ـ اليوم مات اعقل الناس واكملهم .

ثم توفي الفضل بن يحيى من علة نالته من رطوبة في شقه ولسانه ، ثم تزايدت عليه الى ان مات في المحرم سنة ١٩٣ قبل وفاة الرشيد بخمسة اشهر ، وكانت سنه خمساً واربعين سنة ، وصلى عليه اكثر الناس ، واشتد الجزع من الخاصة والعامة عليه ، واغتمّ عليه جميع من عرفه ، و كثر التزاحم على جبانته ، ودفن الى جنب قبر ابيه .

فقال بعض الشعراء :

ليس نبكي عليكم يا بني برمك   أن زال مُلككمْ فتقضى
بل نبكيكم لنا ولأنا   لم نر الخير بعدكم حلّ ارضا

ونظن بعد هذا ان ما تتبعناه من اخبار البرامكة والرشيد كفاية وان السبب الذي ادى الى نكبتهم كان سياسياً محضاً ، فقد صار الرشيد لما اصبح في سن الرجال يغار منهم ، ويشكو من كثرة نفوذهم ، وقد وصل به الحال آخر الامر ان اخذ يخاف على ملكه ونفسه من كل انسان ، حتى جعله ذلك اذناً يسمع لكل واش ، ويصدق كل حسود ، ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها ، فقد وزراء إن كتبوا اجادوا ، وان قادوا الجيوش سدوا الثغور ، وان ولوا عملًا اصلحوا ، وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه ، بل تراهم حذرين وجلين ، فما هي إلا وشاية تطرق اذنه حتى تراه قد اخذ بخلاقيمهم فاوردهم شر مورد ، لا يبالي بما سبق لهم من جليل الخدم ، ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل ، بل ينسى ذلك كله ، ثم يتقدم عنده الوشاة ، وان لم يكن لهم في ميدان الصالحين اثر ، فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعدوان بين الامين والمأمون ولدي الرشيد وخلفاءه من بعده ، ولقد تولى الفضل الوزارة بعد البرامكة فلم يسد المكان الذي سدوا ، ولا كان بطوقه ان يماثلهم او يضاهيهم .

امير المؤمنين فريد بعد اصدقائه

ما كاد هرون الرشيد يقضي على البرامكة حتى ولى الفضل بن

الربيع الوزارة وغادر بغداد الى الرقة يقيم فيها وحده ، وليس يقع المؤرخون على السبب الحقيقي في هذا الانقلاب الذي حمل الرشيد على مغادرة العاصمة الى قصر بعيد عنها ، ويذهب بعضهم الى ان السبب في ذلك رغبة الرشيد في ان يكون على مقربة من حدود ملكه ، وقد يكون في ذلك بعض الحق الا اننا نعتقد ان هناك اسباباً اخرى ، ولا يبعد ان يكون منها رغبة الرشيد في البعد عن بغداد ، وعن قصور البرامكة فيها ، وذكراهم التي كانت ما تبرح تضطرب في خاطره ونفسه ، وتشتعل في فؤاده وقلبه .

ولا يبعد ان يكون الرشيد قد تملكه الاسى والحزن بعد هذه الفاجعة التي امر بها فهو ليس يجهل - والتاريخ يؤكد ذلك - ان القوم كانوا من اخلص رجال الحكم في عهده ، وانهم قد اورثوه هذا الملك وزينوا له الخلافة ، ومهدوا له سبل الادارة وشؤون الحكم ، وانه لولاهم لكان اميراً كغيره من الامراء ولكان انتقل الملك الى سواه من ابناء شقيقه الهادي .

ثم انه كان رجلاً سريع الدمعة كثير الحياء ، فكيف يستطيع البقاء في بلد ما يستطيع نسيانهم فيها ، وما تبرح ذكراهم تسلم في نفسه ، وتجيش في صدره .

*

ولما نكب الرشيد البرامكة واستأصل شأفتها حرم على الشعراء ان يرثوهم ، وامر بالمؤاخذة على ذلك فاجتاز بعض الحرس ببعض الخرابات ، فرأى انسانا واقفاً وفي يده رقعة فيها شعر ، يتضمن رثاء البرامكة ، وهو ينشده ويبكي ، فاخذه الحرس فاتى به الى الرشيد،

وقص عليه الواقعة ، فاستحضره الرشيد ، وسأله عن ذلك ، فاعترف به . فقال له الرشيد :

ـ اما سمعت تحريمي لرثائهم .. لأفعلن بك ولأصنعن .

فقال : يا امير المؤمنين ، ان اذنت لي في حكاية حالي حكيتها ثم بعد ذلك انت ورأيك ...

قال : قل..

ـ اني كنت من اصغر كتاب يحيى بن خالد وارقهم حالا ،فقال لي يوماً : اريد ان تضيفني في دارك يوماً ، فقلت : يا مولانا انا دون ذلك وداري لا تصلح لهذا . قال : لا بد من ذلك ، قلت : فان كان لا بد فامهلني مدة حتى اصلح شأني ومنزلي ، ثم بعد ذلك انت ورأيك . قال : كم امهلك؟قلت : سنة .قال : كثير. قلت: فشهوراً . قال:نعم . فمضيت وشرعت في اصلاح المنزل . وتهيئة اسباب الدعوة ، فلما تهيأت الاسباب واعلمت الوزير بذلك قال :

ـ نحن غداً عندك .

فمضيت وتهيأت في الطعام والشراب وما يحتاج اليه فحضر الوزير في غد ، ومعه ابناه جعفر والفضل ، وعدة يسيرة من خواص اتباعه، فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل ، وقال لي :

ـ يا فلان انا جائع ، فعجل لي بشيء .

فقال لي الفضل ابنه :

ـ الوزير يحب الفراريج المشوية ، فعجل منه ما حضر .

فدخلت واحضرت منها شيئاً ، فاكل الوزير ومن معه ثم قام يتمشى في الدار ، وقال :

ـ يا فلان ، فرجنا في دارك .

فقلت : يا مولانا هذه هي داري ، ليس لي غيرها ...

قال : بلى.. لك غيرها .

قلت : والله ماأملك سواها ...

فقال . هاتوا بناء ...

فلما حضر قال له : افتح في الحائط باباً .

فمضى الرجل ليفتح في الجدار باباً فقلت :

ـ يا مولانا كيف يجوز ان يفتح باب الى بيوت الجيران ،والله اوصى بحفظ الجار ...

قال : لا بأس في ذلك .

ثم فتح الباب ، فقام الوزير وابناؤه ، فدخلوا فيه وانا معهم ، فخرجوا منه الى بستان حسن ، كثير الاشجار ، والماء يتدفق فيه ، وبه من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر ، وفيه من الآلات والفرش والخدم والجواري كل جميل بديع ، فقال :

ـ هذا المنزل وجميع ما فيه لك .

فقبلت يده ، ودعوت له ، وتحققت القصة، فـــاذا هو من يوم ان حدثني بزيارته قد ارسل واشترى الاملاك المجـــاورة لي وعمرها داراً حسنة ، ونقل اليها من كل شيء ، وانا لا اعلم ، وكنت ارى العمارة فاحسبها لبعض الجيران ، ثم قال لابنه جعفر :

ـ هذا منزل وعيال ، فالمادة من اين تكون له ؟

قال جعفر : قد اعطيته الضيعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب له بذلك كتاباً .

فالتفت الوزير الى ابنه الفضل وقال له :

ـ يا بني ، فمن الان الى ان يدخل دخل هذه الضيعة مـا الذي ينفق ؟

قال الفضل : عليّ عشرة آلاف دينار احملها اليه ...

فقال : فعجلا له بما وعدتما ...

فكتب لي جعفر بالضيعة ، وحمل الفضل اليّ المـال فأثريت وتحسن حالى ، وكسبت بعد ذلك معه مالاً طائلاً ، انا اتقلب فيه الى اليوم ، فوالله ـ يا امير المؤمنين ـ ما اجد فرصة اتمكن فيهـا من الثناء عليهم والدعاء لهم ، الا انتهزتها ، مكافأة لهم على احسانهم فان كنت قاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك ...

فرق الرشيد له واطلقه ، واذن لجميع الناس في رثائهم .

*

وليس يقع علمنـا في الوقت الحاضر على نفسية الخليفة بعد هذه الحادثة ، ولكننا نستطيع التكهن بانه كان بعدها مضطرب الفكر مشتت البال ، وانه كثيراً ما كان يفكر في شؤون ملكه ومصاير بنيه من بعده ، ولا يبعد انه كان يذكر الامين ولي عهده وانهاكه في المرح واللهو ، وكيف ان من هذا شأنه لن يكون اهلاً للخلافة ، ولا رأساً للدولة ، ولا رجلاً يستطيع الوقوف امام عوادي الزمن ، ومشاغل الملك ...

كل هذه الامور وسواها كان يشغل فكره ويكثر بلباله والمه ، ويزيد في اضطرابه ، فينصرف في قصره لوحده ونفسه ، يشكر ربه على عطفه ورحمته وان أعطاه الملك والسلطان ...

واذا ضفنا الى ذلك ما اخذ يحسه الرشيد من الم الوحشة بعد انهيار سلطان البرامكة ،وتذكرنا ان مجالسه ما كانت تخلو من واحد منهم ،وان جعفراً ما كان يفارقه في سفر ولا حضر ،كان بميسورنا ان ندرك بعض اسباب هذه الألم الكامن واصبح بطوقنا ان نستخلص من هذا التبدل الغريب في اخلاق الرشيد ما يساعدنا على تفهم ذهنيته بعد هذه الفاجعة التي امر بها ، والتي كان من نتائجها سقوط عائلة باسرها الى اقصى دركات المهانة ...بما فيها من شيوخ و كهول وشباب واطفال .

— ٨ —

النظام السياسي

الخليفة

كان على رأس النظام السياسي القائم في الدولة العباسية الخليفة ، واليه يرجع الامر في كل شيء ، فهو السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية فيما يتعلق بهذه الامور التي لا تتصل بجوهر الاسلام وفروض الدين .

اليه كان يرجع كل العمال ، وعنه كانت تصدر كل القرارات ، واذا كان الخليفة في عهد الخلفاء الراشدين رجلاً كغيره من المسلمين لا يفضلهم الا بالتقوى والعمل الصالح ، وكان في عهد الامويين اقرب الى شيخ قبيلة منه الى خليفة المسلمين ، وكان في سياسته واعماله ومقابلاته واجتماعاته مع الشعب ينزع منزعاً ديموقراطياً ، فانه في العهد العباسي اصبح يساوق ملوك الفرس والروم في الاحتجاب عن الناس ، وقيام الخدم والحرس والحشم حوله ومسيرهم من خلفه ومن قدامه ..

وكان يصار الى انتخاب الخليفة فى عهد الخلفاء الراشدين بالطرق

البرلمانية المعروفة ، واما في عهد الامويين فقد صارت الخلافة ملكاً يخلعه الخليفة على من يريد من ولده واهله ، وكذلك صار الحال في ايام العباسيين ، كما فشت في الوقت نفسه بين الخلفاء ظاهرة بغيضة بدأ بها عبد الملك بن مروان من الخلفاء الامويين لما عهد الى اثنين من ولده بالخلافة من بعده الواحد بعد الآخر ، فاذا جلس احدهما على عرش الخلافة راح يسعى الى نزع البيعة عن شقيقه وتقليدها لولده ، وكانت هذه الظاهرة البغيضة من الاسباب التي عملت على التفريق بين العائلة الواحدة وتمزيقها وتقسيم الاحزاب في الدولة شيعاً كل حزب يؤيد احد الاخوين .

مسألة البيعة

ومما يؤسف له ان الرشيد نفسه مع علو همته ، وبعد نظره ، وقع في الخطأ الذي ارتكبه قبله خلفاء امية وبعض خلفاء بني العباس ، خصوصاً والده المهدي الذي بايع بالخلافة من بعده لولديه الهادي وهرون الرشيد ، فراح الهادي في عهد خلافته يعمل على عزل شقيقه هرون عن ولاية العهد ، وعقدها لابنه ، ولولا تدخل يحيى بن خالد البرمكي ، ونصحه للهادي ، وتخويفه من نتائج عمله ، وتثبيت قلب هرون ، وحثه على الثبات والمناضلة عن حقه ، ثم تدخل الخيزران والدة هرون في الامر ، لما وصلت الخلافة الى هرون ، ولكانت لغيره.

واما احتياط الرشيد واخذه على ولديه العهود والمواثيق ان لا يظلم احدهما الآخر ، وان يبر به ، ويحفظ له عهده ، فاحتياط لا قيمة له ، حين يكون السلطان بيد احدهم ، وقد احتاط غيره من

الخلفاء قبله فلم يغن عنهم ذلك شيئاً .

الرشيد وولديه

وكان الرشيد كما يظهر يحب ولديه الامين والمأمون حباً عظيماً . وكانت تضطرب في نفسه الرغبة الملحة في ان يرى اولاده دائما بين يديه يضمهم الى صدره ، ويشركهم في شؤونه ، ويشاهدهم متفقين على اقتسام ارثه ... وحكم هذه المملكة العظيمة البعيدة الاطراف التي ورثها هارون من العباس اول الخلفاء العباسيين ،والتي كان يريدها لابنائه من بعده ولاحفادهم واحفاد احفادهم ...

لقد كان يحب بنيه حقاً ،وقد وكل امر تعليمهم الى اعظم رجال مملكته علماً وفهماً ودراية ، وكان يعنى كل العناية بثقافتهم وتعليمهم، ووصيته الى خلف الاحمر معلم الامين في هذا الشأن فريدة رائعة .

قال الاحمر النحوي : بعث اليّ الرشيد لتأديب ولده محمدالامين فلما دخلت قال :

يا أحمر ... ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، وكن له بحيث وضعك امير المؤمنين ، اقرئه القرآن وعرفه الآثار ، ورو‌ه الشعر وعلمه الفن وبصره مواضع الكلام وبدئه ، وامنعه الضحك إلا في اوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا اليه ، وان يرفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلاوانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير ان يخرق بك فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقربه ما استطعت بالقرب

والملاينة فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة . »

حديث الكسائي

ويحدثنا الكسائي عن دخوله على الرشيد واجتماعه بولديه فيقول:

« دخلت على الرشيد فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال : اقعد » .

فلم ازل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ، ولم يبق إلا خاصته ، فقال لي :

- يا علي .. ألا تحب ان ترى محمداً وعبدالله ؟

قلت : ما اشوقني اليهما يا امير المؤمنين ، وأسرني بمعاينة نعمة الله على امير المؤمنين فيهما ...

فامر باحضارهما ، فلم البث ان اقبلا ككوكبي افق يزينهما هدؤ ووقار ، وقد غضا ابصارهما وقاربا خطوهما ... حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما على ابيهما بالخلافة ، ودعوا له احسن الدعاء .

فامرهما بالدنو منه ،فصيّر محمداً الامين عن يمينه، وعبدالله المأمون عن يساره ، ثم أمرني ان استقرئهما واسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شيء إلا احسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ... ثم قال لي :

— كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟

فقلت : يا امير المؤمنين هما فرع ذكا اصله ، وطاب مغرسه وتمكنت في الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، ابوهما اغر نافذ الامر واسع العلم عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان

بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فامتع الله امير المؤمنين بهما وآنس جميع الامة ببقائه وبقائهما ، فما رأيت احداً من اولاد الخلفاء واغصان هذه الشجرة المباركة اذرب السنا ولا احسن الفاظاً ، ولا اشد اقتدار على تأدية ما حفظ منهما » ودعوت لهما دعاء كثيراً ... وامنّ الرشيد على دعائي ثم ضمهما اليه ، وجمع يده عليهما فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ... ثم امرهما بالخروج فلما خرجا اقبل عليّ فقال :

ـ كأنك بهما وقد حمّ القضاء ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب اجله قد تشتت كلمتهما ، واختلف امرهما ، وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء..ويتمنى كثير من الاحياء انهم في عداد الموتى ...

خوف الرشيد

وكان الرشيد كثير القلق على الملك بعده يخشى ان لاينتظم لاولاده ، وان يختلفوا فيما بينهم.. حدث الاصمعي قال :

« بينما انا اساير الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول :

قلدْ امور عباد الله ذا ثقة موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة اقوام ذوي خطل لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت انه يريد امراً عظيماً. ثم قال لاحد خدمه : عليّ بيحيى بن خالد .

فما لبث ان أتاه فقال له :

« يا ابا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، والاسلام جذع والايمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة قد امنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل ، فما لبث ان ارتدعامة العرب على ابي بكر وكان من خبره ما قد علمت،وان ابا بكرصيّر الامر الى عمر فسلمت الامة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شوري فكان بعده ما بلغك من الفتن حتى صارت الى غير اهلها ... وقد عنيت بتصحيح هذا العهد - وكان الرشيد قد عهد لولده الامين بولاية العهد بعده منذ زمن غير بعيد ولم يعهد لابنه عبدالله المأمون بشيء - وتصييره الى من ارضى سيرته واحمد طريقته ، واثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبدالله المأمون ... وبنو هاشم كما تعلم مائلون الى محمد الامين باهوائهم ... وفيه مافيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والاماء في رأيه ، وعبدالله المرضي الطريقة الاصيل الرأي الموثوق به في الامر العظيم ... فان ملت الى عبدالله اسخطت بني هاشم ، وان افردت محمداً بالأمر لم آمن قيامه حق القيام بشؤون الملك ومصالح الرعية، فاشر عليّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر »

فقال يحيى : يا امير المؤمنين ان كل زلة مستقالة ، وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد فان الخطأ فيه غير مأمون ... والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا ...

فعلم الرشيد انه يريد الخلوة فامرني بالتنحي ... فقمت وقعدت ناحية بحيث اسمع كلامهما ... فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى

مضى الليل وافترقا على ان يعقد الأمر لعبدالله المأمون بعد محمد الامين...

ولكن الرشيد لم يكتف بذلك بل راح يعهد للمأمون بالولاية على خراسان بعد وفاته، وترك للامين بغداد والعراق... فغضبت زوجه زبيدة والدة الامين لذلك وقالت له :

ـ ما انصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق واعريته من العدد والقواد، وصيّرت ذلك الى عبدالله المأمون دونه.

فقال : وما انت وتمييز الاعمال واختبار الرجال ...اني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب، وصاحب الحرب احوج الى الرجال من المسالم، ومع هذا فانا نتخوف ابنك على عبدالله، ولانتخوف عبدالله على ابنك إن بويع..

ولما خرج الرشيد حاجاً سنة ١٨٦ ومعه ولياعهده الأمين والمأمون كتب البيعة بينهما وما يتعلق بها من شروط وعلقها في الكعبة...

ويقول ابراهيم الحجبي : ان الكتاب وفيه البيعة لما رفع ليعلق بالكعبة وقع فقلت في نفسي : وقع قبل ان يرتفع... ان هذا لامر سريع انتقاضه قبل تمامه...

وطلب الرشيد من ولي عهده الأمين ان يحلف لاخيه في الكعبة بان يقوم بالشرط الذي وضعه الرشيد فيها، وهي ان يترك للمأمون ولاية خراسان في عهده والخلافة من بعده ففعل.. ولما اراد الخروج من الكعبه رده جعفر بن يحيي وقال له :

ـ فان غدرت بأخيك خذلك الله...

وطلب منه ان يحلف به ثلاثا ففعل الأمين ايضاً، وبهذا السبب اضطغنت ام جعفر زبيدة زوج الرشيد على جعفر بن يحيى، فكانت

من اشد من حرّض الرشيد على الايقاع به .

وكان الرشيد يقول : اما والله اني لاتعرف في عبدالله المأمون حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزّ نفس الهادي ...

كيف صارت البيعة للامين

يقول صاحب كتاب الوزراء والكتّاب : ان محمد بن الرشيد كان في حجر جعفر بن الأشعث ، ثم صرف الرشيد ابن الأشعث ، وجعل محمداً في حجر الفضل بن يحيى ، وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد ، وضمّ اليه اعماله ودواوينه ، وشخص الى الرقة ، وأنفذ الفضل مع الرشيد محمد بن منصور بن زياد يخلفه بحضرة الرشيد ...

وهذا يعني على الأرجح ان يكون نائباً عنه في البلاط ، فاذا أراد الرشيد من الفضل شيئاً كتب له نائبه بذلك .

وذكر محمد بن الحسن بن مصعب : ان الفضل بن يحيى لما صار الى خراسان فرّق فيهم في اموالاً ، وأعطى الجند اعطيات متتابعة ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد فبايع الناس له وسماه الأمين .

وفي رواية اخرى : انه لما لاحظ الفضل بن يحيى سنة خمس وسبعين ومائة ان جماعة من بني العباس قد مدوا اعناقهم الى الخلافة بعد الرشيد ، لانه لم يكن له ولي عهد ، أجمع على البيعة لمحمد ، ولما صار الى خراسان اظهر البيعة له .

وفي ذلك يقول النميري الشاعر :

امسى بعمرو على التوفيق قد صفقت   على يد الفضل ايدي العجم والعرب

ببيعة لولي العهد أحكمها   بالنصح منه وبالاشفاق والحدب

ولما تناهى الخبر الى الرشيد بذلك وبايع له اهل المشرق بايع ، وكتب الى الآفاق في ذلك ، فبويع للأمين في جميع الأمصار .

ويقول اليعقوبي : ان هرون بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥ هجرية ، ومحمد ابن خمس سنين ، وأعطى الناس ، على ذلك ، عطايا جمة ، وأخرج محمداً الى القواد ، فوقف على وسادة فحمد الله وصلى على نبيه ، وقام عبد الصمد بن علي فقال : ايها الناس لايغرنكم صغر السن ، فانها الشجرة المباركة اصلها ثابت ، وفرعها في السماء ... ونثرت على الناس الدراهم والدنانير والمسك والعنبر .

البيعة للمأمون

وكان المأمون في حجر محمد بن خالد بن برمك ، فنقله الرشيد الى حجر خالد ، فأشار على الرشيد ببيعته للعهد بعد محمد ، وقام بالامر حتى عقده له ، وشخص به معه من الرقة الى مدينة السلام ، حتى اكدّ البيعة له ، واخذ الايمان على بني هاشم والوجوه بها ، وكاتب العمال في جميع النواحي بذلك ، ثم انصرف الى الرقة .

هذا ما رواه «الجهشياري» صاحب كتاب «الوزراء والكتاب» واما الطبري فيقول في حوادث سنة ١٨٢ ما يأتي : « ان فيها كان انصراف الرشيد من مكة ، ومسيره الى الرقة ، وبيعته بها لابنه عبدالله المأمون بعد ابنه محمد الامين ، وأخذ البيعة له على الجند بذلك بالرقة ، وضمّه اياه الى جعفر بن يحيى ، وانه قد بويع له بمدينة السلام حين قدمها ، وولاه ابوه خراسان وما يتصل بها الى همذان ، وسماه المأمون ...

وفي سنة ١٨٩ اي بعد نكبة البرامكة بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ، وجعل امر القاسم في خلعه واقراره الى عبد الله ان افضت الخلافة اليه

وفي سنة ١٨٦ ذهب الرشيد الى الحج ... ومعه الامين والمأمون ، فلما قضى مناسكه ، كتب لعبدالله المأمون ابنه كتابين جهدَ الفقهاء والقضاة اراءهم فيها ، احدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وَلِيَ عبد الله من الاعمال ، وصيرَ اليه من الضّياع والغلات والجواهر والاموال ، والآخر نسخة البيعة التي اخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين في البيت الحرام ، وبعد اخذه البيعة على محمد الامين واشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده ، واهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم ، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدم الى الحجبة في حفظها ومنع من اراد اخراجها والذهاب بها .

ولما تم الامر للمأمون بعد مقتل اخيه الأمين «ايلول ٨١٣ »م واصبح خليفة المسلمين راح يحاول اختيار شخص لولاية العهد من غير العباسيين ، فاختار علي الرضا من آل البيت العلوي ليكون خليفة بعده ، وخلع السواد شعار العباسيين ،ولبس الملابس الخضراء شعار العلويين ، فقام عليه العباسيون واهل بغداد ، واختاروا ابراهيم بن المهدي خليفة مكانه ، فسار اليه المأمون فهرب منه ، ثم تقدم اليه وبايعه .

ومن غريب امر المأمون انه تجاهل ابنه العباس فلم يعهد له

بالخلافة من بعده ، واختار المعتصم شقيقه.. وهذا اوصى لابنه الواثق بعده المتوفي سنة «٨٤٧م».

ومن الخلفاء العباسيين الاربعـــة والعشرين الاول الذين دام سلطانهم مائتي سنة ونصف تقريباً « ٧٥٠-٩٩١ » سنة فقط كان خليفتهم ابنهم .

الوزير

وكان يأتي بعد الخليفة الوزير ، وقد نشأت هذه الوظيفة في عهد العباسيين اخذوها عن الفرس ، ولم يكن للامويين مثلها ، وفي عهد العباسيين كانت سلطات الوزير تضعف وتقوى وفاقاً لشخصية الخليفة وقوته ، فاذا كان الخليفة قوياً كالمنصور مثلاً ، فان الوزير يكون موظفاً كغيره مـــن الموظفين ، واذا كان ضعيفاً اصبح الوزير كل شيء في الدولة ، وفي عهد هرون الرشيد الاول ترك الخليفة امور الدولة لوزيره يحيى بن خالد البرمكي ، وقلده كل اموره ، ثم نرى هرون الرشيد في اواخر ايامه يضيق ذرعاً بهذه السلطات الواسعة التي اعطاها للبرامكة ،فيعمل على انتزاعها منهم بعزلهم وحبسهم وقبض اموالهم ، واحتبح لذلك بتهم عرضنا لهـــا في فصول سابقة من هذا الكتاب .

وقد علا شأن الوزير واستفحل في اواخر العهد العباسي حتى ان الخليفة النـاصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) جعل وزيره وكيله في البلاد ، وجعل طاعة المسلمين له واجبة ، ومن اطاعه اطاع الخليفة ، ومن اطاع الخليفة اطاع الله[١] .

---

(١) الفخري .

واذا كان الوزير قوياً كان بطوقه ان يعزل ويولي من يشاء من الامراء والحكام ، واحياناً كان الوزير يورث وظيفته الى من يشاء من ولده وغير ولده ، وكان احياناً يقبض اموال الشخص الذي يسقط من الحظوة ، كما كان من حق العامل ان يفعل مثل ذلك مع من كانوا اقل منه مركزاً ، وكذلك كان من عادة الخليفة اذا عزل وزيره وغضب عليه ان يقبض امواله ، حتى اصبحت مصادرة الاموال عادة متبعة ، وحتى صار اقرار ديوان خاص لها سُمي (ديوان المصادرات) ، من اعماله حفظ هذه الاموال التي صار حجزها واحصاؤها .

وفي عهد الخليفة المعتضد كان الوزير يتناول معاشاً شهرياً قدره الف دينار ..

الحاجب

وكانت الحجابة من المراكز العالية في الدولة، وكانت وظيفة الحاجب تقديم الناس الى الخليفة ، والنظر في شؤونه ومصالحه، وكان للحاجب مركز رفيع بالدولة ، لاتصاله بالخليفة نهاراً وليلاً ، وقد ولى (الفضل بن الربيع) هذه الوظيفة في عهد الرشيد ، ثم صار وزيراً بعد البرامكة .

وكان هناك الجلاد ، وهذه وظيفة جديدة ، صار خلقها في العهد العباسي ، وكان الجلاد في اكثر الأحيان يقوم وراء الخليفة ، وكان تحت امرة الجلاد مخابىء ارضية وسجوناً لتعذيب المجرمين .

ثم كان هناك ايضاً منجم البلاط ، وهذه وظيفة صار اقتباسها عن الفرس .

وكان الوزير يرأس رؤساء دوائر الدولة جميعاً ، وكانوا احياناً يسمونهم بالوزراء ، ولكن صلاحياتهم كانت أقل من صلاحيات الوزير الاول ، وفي عهد العباسيين أصبحت الادارة الحكومية اكثر تعقداً مما كانت قبلاً ، مع تنظيمها وترتيبها خصوصاً في الامور المالية والقضاء .

ولما كانت المسائل المالية اساس كل نظام حكومي في الدولة ، فقد كان (ديوان الخراج) او ديوان الضرائب في عهد العباسيين كما كان في عهد الأمويين اكبر مركز اداري في الدولة .

وكانت واردات الدولة عبارة عن (الزكاة) التي كان على كل مسلم دفعها عن ماله وتجارته وواردات ارضه ، وهذه الاموال التي يصار الى جمعها من المسلمين كانت تصرف على المسلمين فقط ، وتوزع على الفقراء والمساكين واليتامى وابناء السبيل ، وكان يصرف بعضها لدفع دية الاسرى المسلمين في بلاد العدو ، والبعض الآخر على الجيش الذي يخرج للجهاد .

اما الواردات الاخرى فكانت الجزية من الاعداء ، والجزية على الرؤوس من غير المسلمين ، والخراج او الضريبة على الارض ، وواردات الجمارك ، وكان يدفعها غير المسلم من التجار الذين ينقلون بضاعتهم الى البلاد الاسلامية ، ومن المؤكد ان خراج الارض كان اعظم واردات الدولة واغزرها .

واما واردات الدولة في عهد الرشيد فليس في المصادر التي بين ايدينا تفصيل عنها ، ولكن ابن خلدون يذكر شيئاً عن واردات

الدولة في عهد المأمون ؛ ولا فرق بين العهدين لانه لم يحدث كبير تبديل في الشؤون المالية عهد المأمون .. وقد قدرها ابن خلدون بثلاثمائة واثنين وثلاثين مليوناً من الدراهم ... عدا ما كان يؤخذ من الضريبة على حاصلات الارض نوعاً لا نقداً ...

وكان هناك (ديوان للذمم) أسسه المهدي ، وهو عبارة عن سكرتيرية عامة للادارات الحكومية ، ينظر فيـــه صاحبه في سير الامور في مختلف الدوائر .

و(ديوان للتوقيع) تمر عليه كل التحارير الرسمية ، والمخابرات بين الخلافة وعمالها ...

ودائرة للتحقيق في المظالم ، ودائرة للشرطة ، ودائرة للتفتيش .

وكان ديوان المظالم عبارة عن محكمة استئنافية ، يعمل على اصلاح الاخطاء التي وقعت فيها الدوائر الاخرى .

وهذه الدائرة صار تأسيسها في عهد عبد الملك الخليفة الاموي ، وكان يجلس بنفسه في كل اسبوع للمظالم ، ثم ضعف شأنها بعده ، حتي أعادها المهدي العباسي ، وجرى خلفاؤه من بعده على خطته ، فكانوا يجلسون لاستماع مظالم الناس ، وفي عهد الرشيد كان يحيى بن خالد ينظر في امر المظالم .

والمهتدي العباسي ٨٦٩-٨٧٠م . كان آخر بني العباس الذين جلسوا للمظالم ، وقد اخذ روجر الثاني ١١٣٠-١١٥٤م . هذه الطريقة عن العرب فأقرها في سيسليا ، ومنها انتقلت الى اوروبا .

الشرطة

وكان ديوان الشرطة يتولاه موظف كبير في الدولة ، ويسمى

صاحب الشرطة ، وكان صاحب الشرطة قائد حرس الخليفة ، وفي اواخر العهد العباسي صار مدير الشرطة صاحب رتبة وزير في الدوله، وكان في كل بلدة ادارة للشرطة ، وكان راتب الشرطة حسناً .

وكان مدير البوليس البلدي يسمى المحتسب ، وهذه وظيفة صار انشاؤها في عهد امية ، كما صار انشاء دائرة الشرطة ايضاً ، وكان المحتسب يراقب الامور التجارية وما يتبع ذلك من ارتفاع الاسعار، وتطفيف الكيل ، ونظافة الشوارع ،ومسائل الاخلاق العامة،وكان من اعماله ايضاً معاقبة من يحلقون ذقونهم للتقرب الى السيدات[1] ، ومن اعماله ايضاً النظر في امر المكلفين بامر الوعظ والارشاد فلا تكون مواعظهم ثقيلة على الاسماع .

صاحب البريد

واما البريد فوظيفة قديمة عنى بها معاوية بن ابي سفيان اول خلفاء امية ووسعها عبدالملك بن مروان بعده ،واما الوليد بن عبد الملك فقد افاد من البريد لتعزيز العمارة في عهده .

ويقول المؤرخون ان هرون الرشيد اجرى لهذه الدائرة نظاماً جديداً بنصيحة يحيى بن خالد ، ومع ان الغاية الاولى من البريد كانت خدمة الدولة ومصالحها ، فانها تطورت مع الايام فاصبحت مصلحة تجارية يصار فيها الى نقل التجارة والمسافرين من بلد الى آخر مقابل مبلغ معين من المال ... وكان في كل ولاية من ولايات الامبراطورية مركز للبريد ، وصار تعبيد الطرق بين البلدة والاخرى

(١) الماوردي

تسهيلاً للبريد ،و ُربطت الامصار بعضها الى بعض بواسطة هذه الطرق المعبدة ، وكان في هذه الطرق محطات لتغيير الخيل ، واستعمل البريد لنقل الولاة الجدد الى مقر اعمالهم ، ونقل الجنود من منطقة الى اخرى، وصار استعمال الحمام الزاجل ، واول ما نسمع عن ذلك في ايام المعتصم عند القبض على (بابك) الثائر .

وكان في دائرة بريد بغداد ، خرائط لكل امصار الامبراطورية تقدر فيها المسافات بين البلد والآخر ، وساعدت هذه الخرائط التجار والمسافرين ، وكانت اساساً للابحاث الجغرافية بعد ذلك .

وقد افاد بعض كتاب العرب من هـذه الخرائط كصاحب كتاب (المسالك والممالك)،ويظهر ان هذه الطرق كانت موجودة من عهد الامبراطورية الفـــارسية ، والعرب اصلحوها ووسعوها ، وبنوا فيها الخانات ليجد فيها المسافرون حاجاتهم ، وليقضوا فيهـــا الليل اذا ارادوا .

وكان لدى صاحب البريد وظيفة اخرى غير النظر في امر البريد ، وهي التجسس عـــلى البريد ومراقبته ، وكان اسمه (صاحب البريد والاخبار)،وكان له عيون من الموظفين ينقلون له اخبار العمال في مختلف الامصـــار ، فقد ذكر (الاتليدي)[1] قصة تقرير ورد الى المتوكل عن قاض في بغداد لم يكن يسير في النـــاس سيرة حسنة ، وكان لا ينظر الى الامور المعروضة عليه النظر العادل الصادق .

وفي بعض المصادر ايضاً مـا يدل على ان المنصور استعمل بعض التجار والمسافرين ليكونوا عيوناً له .

---

(١) الاتليدي اعلام الناس .

وفعل هرون الرشيد مثله ، وقد اضطروا الى ذلك بسبب كثرة الخارجين عليهم ، ويقال ان المأمون استخدم (١٧٠٠) جاسوسة من العجائز في بغداد .

وكانت اسيا الصغرى تعج بجواسيس العباسيين كتجار وسواح ، ينقلون اليهم اخبار الروم وحركاتهم العسكرية .

القضاء

وكان يقوم على القضاء احد الفقهاء المتعلمين ، وكان قاضي بغداد يسمى « قاضي القضاة » وكان ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة ، ومؤلف كتاب (الخراج) اول من سمي بهذا الاسم ، وعاش في عهد المهدي والهادي وهرون الرشيد .

وكان على القاضي ان يكون رجلاً كامل الاخلاق حراً بعيداً عن امراض العين والاذن ، عالما بالقضاء والتشريع .

وكان يحكم بغير المسلمين قضاة منهم .

وكان قاضي بغداد يعين القضاة في مختلف الامصار ، وكانت صلاحياته اوسع من صلاحيات القاضي .

وكان راتب القاضي في الشهر الواحد لا يقل عن اربعة الاف درهم ، وكان قاضي مصر في عهد المأمون يتناول هذا المبلغ .

الجندية والسلاح

ولم يكن لدى الخليفة جيش قائم بالمعنى المعروف بهذه الكلمة اليوم ، يصار الى تدريبه وتنظيمه دائماً وابداً ، وانما كان هناك في

بعض الثغور القائمة على اطراف الامبراطورية جماعـــة من الناس يعيشون ويسكنون مع عيالهم ، على استعداد لحمل السلاح ما دعت الحاجة الى ذلك ، وكانوا في الوقت نفسه يتناولون عطاء معيناً من بيت المال .

والجند الذي كان تحت السلاح دائماً هو حرس الخليفة .

وكان هناك جند يدعون عند الحـــاجة ، ليكونوا عـــلى مقربة من العاصمة ، او ليكونوا فيها من جملة سكانها ، وكانوا يسمونهم « المرتزقة » ... بمعنى ان راتبهم كان يدفع من صندوق الدولة ، وكان هنـــاك قسم آخر يُطلبون عند الحاجة ايضاً ويسمون بالمتطوعين .

وكان الحرس احسن الجميع معاشاً وراتباً ، ففي عهد الخليفة العباسي الاول كان راتب الرجل من الجند «٩٦٠» درهماً في السنة ، عدا ما يتبعه من الزيادة والمأكل والمشرب ، وكان الفارس يتناول ضعف هذا الراتب .

وفي عهد المأمون كان جيش العراق مؤلفـاً من ١٢٥ الفـاً من الجند ، وكان المشاة يأخذون ٢٤٠ درهماً في السنة ، والفارس ضعف هذا المبلغ ، واذا ذكرنا ان المنصور لما بنى بغداد كان يدفـــع للمعلم العامل درهماً في النهار ، وللعامل ثلث درهم ، استطعنا ان نقول ان الجندية لم تكن وظيفة فقيرة .

واما الآلات الحربية التي كان يستعملها العباسيون في هذا العصر فقد اشار اليها المسعودي في وصفه حصار جند المأمون لبغداد ،وهي مثل الآ لات التي كانت مستعملة في عصر هرون الرشيد .

« ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ، ونزل في رقة (كلواذا) و (الجزيرة) ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العيارين ، وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة ، في اوساطهم السامين والميازر ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ، ودرقاً من الخوص والبواري ، وقد قرنت وحشيت بالحصا والرمل ، على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد امير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له اناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والامير ، وناس عراة قد جعل في اعناقهم الجلاجل والصوف الاحمر والاصفر ، ومقاود قد اتخذت ، ولجم من مكاس ومَذاب ، فياتي العريف وقد أركب واحداً ، وقدامه عشرة من المقاتلة ، ويأتي النقيب والقائد والامير ، فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع اصحاب الخيل المعدة ، والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية .

ولما ولى المتوكل الخلافة ، امر كل الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعوها في مناطقهم حول وسطهم .

وقد ذكرنا قبلًا امر (عيون) العرب عند الروم لنقل اخبارهم واستعداداتهم العسكرية الى الخلفاء .

وقد اضطر العرب لكثرة الغارات التي كان يقوم بها الروم على حدودهم الى اقامة الحصون ، وكانوا يسمونها الثغور ، وقد صار انشاؤها في عهد هرون الرشيد » .

ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لأسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها، وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور ...

ولما ولي هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور، جعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً وأقام فيها المعاقل، كما أمدّها بحاميات دائمة، ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضاً قاموا بتعميرها، وزراعتها هم وأسراتهم، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة، وأصبحت أحوالها في يسر ورخاء الى ايام الواثق، ثم اخذت بعد ذلك في الافول، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجأون الى هذه الثغور للتفرغ للبحث والدرس ..

— ٩ —

الهوى والشباب

الف ليلة وليلة والرشيد

كانت سيرة الرشيد مورداً للقصة في التـــاريخ الاسلامي ، فقد حيكت من اخباره وحوادثه قصص عديدة في (الف ليلة وليلة) ، ومع اختلاف هذه القصص في اسلوبها ، من حيث المتانة والضعف ، فانها تشترك في تصوير الرشيد في الوان زاهية ، تقربه الى النفوس ، وتشيد بنبله وكرمه وامجاده .

وكذلك نرى جعفر البرمكي لا يكاد يفـــارق الرشيد في قصصه هذه ، واذا كان الرشيد قد امر بقتله في حياته ليقطع الصلة التي كانت تربطه به فان مؤلفي القصص بعد عهده ، قد جمعاهما معاً في كثير من هذه النوادر الشعبية اللطيفة ...

وفي معظم هذه القصص كما يقول الاستاذ عنـــان ، يقدم الينا الرشيد في صورة الامير الضجر الذي يطلب السلوى ، فيأتيه وزيره جعفر البرمكي ببعض رواة العصر وسمّاره، مثل الاصمعي وابو نواس واسحاق الموصلي ، يروون له اغرب مـــا سمعوا او شهدوا من

القصص والاخبار ..

او يدفعه الارق الى التماس السلوى بالطواف ليلاً في انحاء العاصمة العباسية ، وتفقد احوال الرعية ، وعندئذ يقدم الينا الرشيد وقد تنكر في زي التجار ، وتنكر معه بعض رفاق سمره وضجره الذين يلازمونه ... مثل وزيره جعفر ووصيفه مسرور ، ومغنيه اسحق وغيرهم ، وعندئذ يطوف الجميع معاً احياء بغداد ، فتسوقهم المقادير الى بقعة او منزل يقعون فيه على اغرب المشاهد ، ويسمعون اغرب القصص والروايات .

فمن القصص التي نسبت الى عصر الرشيد قصة السندباد البحري الشهيرة وسفراته السبع ، اما القصص التي اتخذ لها الرشيد نفسه بطلاً فهي عديدة منها (قصة قوت القلوب) وهي الجارية الحسناء التي شغف بها الرشيد ، ومنها قصة الرشيد مع خليفة الصياد ، وقصته مع البنت العربية التي انشدته ابياتاً اعجب بها، ثم طلب منها تغيير القافية واستبقاء المعنى فغيرتها مراراً في مقطوعات بديعة فأعجب بها وتزوجها ، وثمة طائفة اخرى من القصص لا يبدو فيها الرشيد بطل القصة الاصلي ، ولكنه يكتشف هذا البطل اثناء طوافه متنكراً في احياء بغداد ، ومن هذه القصص قصة الشاب العماني الذي اضاح ثروته على الغواني ، وقصة محمد بن علي الجوهري ...

وفي مناسبات اخرى يستمع الرشيد حين يصيبه الارق الى سماره وندمائه مثل الاصمعي واسحاق ، وقد تضمنت (الف ليلة وليلة) عدداً من هذه القصص الادبية الممتعة ومعظمها منقول عن كتب الادب مثل العقد الفريد وغيره .

وهكذا نجد الرشيد في « الف ليلة وليلة » بطلاً من ابطال القصة، أسبغت عليه في هذه القصص كلها نفس الالوان الزاهية التي أسبغت على ابطال الف ليلة وليلة الخياليين .. ومع ذلك فان الاعتبارات التاريخية لم تهمل كلها ، ففي معظم هذه القصص نرى شخصية الرشيد تحتفظ بكثير من صفاتها التاريخية المعروفة ، من الجود والتواضع والنبل والفروسية وشغف البذخ ، والتقى والورع ، وحب العلماء والعلم وغيرها مما تؤيده المصادر التاريخية الحقة ، بل نجد بعض هذه المناظر والأخبار منقولاً بنصه عن كتب التاريخ والادب ، بيد اننا نجد انفسنا من جهة اخرى امام طائفة من الوقائع والصفات الخيالية المحضة التي لا تجمل احياناً، والتي نسبت الى الرشيد لكي يستكمل صورة بطل القصة الحقيقي ، وهي مع ذلك وقائع وصفات يسهل تمييزها والاغضاء عنها .

وقد اسبغ قصص الف ليلة وليلة على الرشيد وعصره روعة وشهرة وبهاء لم تزدد على كر القرون إلا قوة ورسوخاً ، وفي وسعنا ان ان نقول ان كتب التاريخ والادب على ما تخص به الرشيد وعصره من الفصول الضافية ، وما تحويه من آيات المديح والثناء ، لم تسبغ على شخصية الرشيد من الروعة والبهاء والعطف قدر ما اسبغت عليها قصص الف ليلة وليلة ، ويبدو هذا الأثر بنوع خاص في الاداب الغربية حيث يعتبر الرشيد بلا مراء اعظم واشهر امراء الاسلام الشرق، ويرجع ذلك الى ذيوع قصص الف ليلة وليلة في المجتمعات الغربية ذيوعاً لم يظفر به اي اثر غربي او شرقي آخر ، والى ان الغرب قد عرف الرشيد وعصره بالأخص من قصص الف ليلة وليلة ،وانطبعت

في ذهنه عن الرشيد وعصره تلك الصور الرائعة التي تقدمها الينا ، بل لم تخل معظم التواريخ الغربية الرصينة من التأثر بهـــذه الصور في تقديرها للرشيد وعصره .

شخصية الرشيد

وهنالك طبيعة الرشيد نفسه وتربيته ، فيظهر انه كان حـــاد العاطفة ، ولكنه ليس بالمستسلم لشهواته بل هو قوي النفس ، جندي بالغريزة والتربية ، طالما قاد الجيوش بنفسه وشرّق وغرّب ، وهذه الحدة بالعاطفة وقوة النفس ونضارة الشباب اظهرته بمظاهر مختلفة ، يوعظ فيتأثر بالموعظة الى ان يجهش بالبكاء ، ويسمع الغناء فيطرب له كل الطرب ، فيه تقوى وصلاح وفيه لطف ودعابة وحب للعبث ، وميل للمنادمة واللهو ...

يرضى عن البرامكة فيعجب بهم كل الاعجاب ويقلدهم كل مناصب الدولة ، ويترك لكبيرهم يحيى بن خالد امور الملك يديره ويسوسه كيف شاء واراد ، ثم يغضب عليهم ويستفز الحساد عواطفه ، فينكل بهم كل التنكيل ... ويعجب بالغناء فيقرب ابراهيم الموصلي المغني تقريبه للعلماء والقضاة ، ولا يسأل عن مال ينفقه متى استطاع المغني او الشاعر ان يصل الى موضع يثير منه اعجابه .. قال (صاحب الاغاني) يصف الرشيد : « كان الرشيد من اغزر الناس دموعاً في موقف الموعظة ، وأشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة » ...

وواضح من هذا ان الرشيد كان يجدّ فيمعن في الجد ، ثم يلهو فينصرف الى اللهو والمرح خضوعاً لحدة العاطفـــة التي كانت اكبر

صفاته ظهوراً وبروزاً ...

واذاً فقد كان الرشيد صاحب نواح مختلفة ما في ذلك شك ولا ريب، او هو عبارة عن متناقضات غريبة، صوّر صاحب (الاغاني) منها حياة الترف واللهو، وتناول ابن (خلدون) جانباً صحيحاً هو جانب الجد والتقوى، وليس يكتمل جانب إلا ان ينتظم مع رفيقه فتظهر عندئذ صورة الرشيد الصحيحة الحقيقية.

كان الرشيد خليفة ديّناً محافظاً، وقد اشتد ذلك فيه ما تقدم في السن، فما كان يقطع صلاة ولا يترك حجاً ما كان الى ذلك سبيل.

وكان يستمع الى وعظ الواعظين، وتذكير المذكرين وهو رقيق القلب سريع الدمعة ...

دخل عليه ابن السماك الواعظ .. فقال له الرشيد: عظني.

فقال يا امير المؤمنين: «اتق الله وحده لا شريك له، واعلم انك غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف الى احدى منزلتين لا ثالث لهما جنة او نار..

فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته .. فاقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال:

- سبحان الله، وهل يخالج احداً شك في ان امير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله ...

فلم يحفل ابن السماك بكلام الفضل ولم يلتفت اليه واقبل على الرشيد فقال:

«يا امير المؤمنين ان هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتق الله وانظر لنفسك»

فبكى الرشيد حتى اشفق عليه الحاضرون ، وافحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف .

وكان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويعمل بها ، وكان لا يضيع عنده احسان محسن ، ولا يؤخر ثواب عامل مخلص ، وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى اهل الادب والفقه ، ويكره المراء في الدين ويقول « هو شيءٌ لا نتيجة له ولا يكون فيه ثواب » .

وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي وعطاياه للشعراء والادباء تكاد تخرج عما يعقل ..

وكان الرشيد حاضر العاطفة سريع الغضب ، كما قدمنا .. قال ابن البختري القاضي :

« كنت عند الرشيد يوماً ، واستدعى مـاءً مبرداً بالثلج فلم يوجد في الخزانة ثلج ، فاعتذر اليه بذلك ، وأحضر اليه مـاءٌ غير مثلوج ، فضرب وجه الغلام بالكوز ، واستشاط غضباً ..

فقلت له : اقول يا امير المؤمنين .. وانا آمن ؟

فقال : قل .

قلت : يا امير المؤمنين تعلم ما كان من الغير بالامس ـ يعني زوال دولة بني امية ـ والدنيا غير دائمة ولا موثوق بهـا ، والحزم ألا تعوّد نفسك الترف والنعمة ، بـل تأكل اللين والشديد ، وتلبس الناعم والخشن ، وتشرب الحار والقار .. فنفحني بيده وقال :

ـ والله لا اذهب الى مـا تذهب اليه ، بل البس النعمة مـا لبستني ، فاذا نابتني نوبة عدت الى نصابي غير خوار »

مجالس المنادمة

ولقد كان الخليفة يجلس للمنادمة ، وحوله بعض رجال البلاط والمغنين والشعراء ، وهذه المجالس كانت كثيرة شائعة في ذلك العهد ، وكان الهادي وهرون وهما وليا العهد شغوفين بهـا محبين لامثالها ، ولكن المهدي الخليفة في ذلك العهد كان ينكرها ولا يريدها ، قال ابراهيم الموصلي المغني : «كان المهدي لا يشرب فارادني على ملازمته وترك الشرب فابيت عليه ، وكنت اغيب عنه الايام ، فاذا جئته جئته منتشياً ، فغـاظه ذلك مني فضربني وحبسني ، فحذقت الكتابة والقراءة في الحبس ، ثم دعاني يوماً فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذل معهم ، فقلت :

ــ يا امير المؤمنين ، اني تعلمت هــذه الصناعة للذتي وعشرتي لاخواني ،ولو امكنني تركها لتركتها وجميع ما انا فيه لله جل وعز.

فغضب غضباً شديداً وقال : لا تدخل على الهادي وهرون البتة ، فوالله لئن دخلت عليهما :« لا فعلن ولا صنعن » .

فقلت : نعم .

ثم بلغه اني دخلت وشربت معهما ، وكانا يميلان الى اللهو ، فضربني ثلثمائة سوط ، وقيدني وحبسني ، ثم اخرجني واحلفني بالطلاق وكل يمين لافسحه لي فيه ، ألا ادخل على ابنيه موسى الهادي وهرون ابداً ولا اغنيهما ، وخلى سبيلي ..

واشتهر عن الرشيد انـه كان يشرب من الشراب لوناً يرخص فقهاء العراق في شربه ، وكان يسمع الغناء ويثيب عليه اعظم ثواب ، ولذلك اشتهر في زمنه اعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ..

وكانت العـــادة في بغداد اذا اراد احد كبّارها من الامراء والقواد واصحاب الشأن في الدولة ان يجلس للمنادمة والشراب ، ان يأمر وكيله باعداد ما يلزم، فيتخير الوكيل اطيب الاطعمة واعذب الشراب ، ويأتي بالمغنين والموسيقيين والجواري والراقصات،وقد يدعو بعض الشعراء ايضاً حتى اذا انتهى من اعداد ما يلزم ، جاء الكبير ومعه صحبه واصدقاؤه فيخلع الجميع ثوبهم الرسمي..ويلبسون ثوباً ملوناً بالحمرة او الصفرة او الخضرة يسمونه ثوب المنادمة وهو في الغالب غلالة رقيقة وملاءة مصقوله ..

ويذهب بعضهم الى ابعد من ذلك،فيسوّي شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر .. اي انه يحدقه على جبينه ، ويقصّره دون جبهته،ويسرّيه مع حاجبيه ويدوّره الى اذنيه، ويسد له الى صدغيه..

وعندئذ يفتح لهم الوكيل او القيم باباً في صدر القاعة ، يخرجون منه وينزلون فيه بضع درجات الى دهليز في جانبيه ابواب مقفلة .. تستطرق الى غرف وقـــاعات عديدة ، وفي منتهى الدهليز مصطبة فرشت على سعتها بالنمارق والطنافس .. وفي صدرها فرش عالية فوق سرير من الابنوس المنزل بالذهب، لا يرتقى اليه إلا بكرسي وحوله عدة كراس ووسائد فوق الطنافس وحول الجدران ..

وفي وسط المصطبة سماط .. هو بساط من جـــلد جميل الصنعة فوق ملاءة من الحرير ، وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم مستديرة الشكل قصيرة علوها شبر ...

حتى اذا انتظم الجميع مجلساً اتوهم بالاباريق البلورية والفضية .. وفيها الأشربة والأنبذة وبينها الاقداح على اختلاف اشكالها وألوانها

ويتخلل ذلك اطباق الفاكهة واللحوم الباردة، ومزاهر الازهـــار ونحوها ..وقد فاضت رائحة المكان بالاطياب العطرية ..

هذا وصف نعتقد بحق انه صادق في تصوير ليالي المنادمة في ذلك العصر ، وهو بعد طريف جميل ..

الشراب

ولا بد من تناول مسألة الشراب في هذا العصر .. خصوصاً بعد ان كثر القول فيه ، وبعد ان ذهب (ابن خلدون) يقول ان بعض الخلفاء وغير الخلفاء كانوا يشربون النبيذ لا الخمر ، يومي بذلك الى ان هناك فارقاً عظيماً بين الاثنين ...

كثر الشراب عند العرب وتعددت ألوانه وأنواعه ، واخذوا عمن جاورهم من الامم ما كان ينقصهم من هذه الألوان والانواع ، فأخذ اهل الشام عن الروم نوعاً من الخمر ممزوجاً بالعسل ، واسمـــه (الرساطون) لم يكن يعرفه اهل الحجاز ، كما اخذ بعض الامويين عن الفرس شراباً اسمه الهفنجة ... كانوا يشربونه سبعة اسابيع في منازل القمر ، وبتقدم العمران واستبحار الترف ، اخذت هـــذه الأشربة وسواها تتسرب الى العرب المسلمين ، فلما جاء العباسيون تفننوا في انواع الشراب وفي مجالسه والمنادمة فيه ...

ولقد اختلف الفقهاء في هذه الأشربة فحرّمها بعضهم واجازها البعض ، خصوصاً وان في بعضها من الكحول شيئاً قليـــلا ، وظهر هذا الخلاف على أشده في اواخر عهد الصحابة وفي أيام الأمويين ، وظهرت في عالم الفقه مسألة النبيذ هل يحل او لا يحل ، ومـــا هو

القدر الذي يحل ؟

وأحسّ عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي بضرر هذا الخلاف فكتب الى الأمصار بتحريم النبيذ ، الى ان كان عصر الائمة فذهب الائمة الثلاثة مالك والشافعي واحمد ابن حنبل الى سد الباب بتاتاً ، ففسروا الخمر المعروفة في القرآن الكريم بما يشمل جميـــع الأنبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها.. وقالوا : كلها تسمى خمراً وكلها محرمة ...

اما الامام (ابو حنيفة) ففسر الخمـــر في الآية بعصير العنب مستنـــداً الى المعنى اللغوي لكلمة الخمر واحاديث اخرى ، وأدّاه اجتهاده الى تحليل بعض انواع من الأشربة كنبيذ التمر والزبيب ، ان طُبخ ادنى طبخ .. وشُرب منه قدر لا يسكر وأمثال ذلك ، ويظهر أن الامام ابا حنيفة كان يتبع الصحابي الجليل (عبدالله بن مسعود) امام مدرسة العراق ، وقد روى (صاحب الأغاني) عنه انه كان يرى حل النبيذ ، وعلى كل فان الذي يهمنا هو القول ان اكثر فقهاء العراق كانوا يحللون بعض انواع الأشربة ، ولذلك كثر شربها في العراق اكثر من سواها من البلدان الاخرى .

وكان العباسيون يقومون في العراق ، وعاصمتهم فيه ، فلا عجب ان تكثر الأشربة في ايامهم ، وان نرى هرون الرشيد نفسه يرى في شرف بعضها مما لا يسكر طبعاً امراً عادياً ... لأن الأشربة اذا اسكرت فهي محرمة حتماً عند عموم الفقهاء ، ولكن هل يستطيع انسان ان يكبح نفسه فلا يشرب من هذه الاشربة إلا بمقدار ؟

وقلد الاغنياء وغيرهم الخلفاء في حياة البذخ والترف ،بل زادوهم

في لهوهم ، لما تقتضيه طبيعة مجالس الخلفاء من حشمة ووقـــار لا يلتزمها غيرهم من الاغنياء .

وبالغوا في الموائد وتنسيقها وألوان طعومها ، ويقول ابو العتاهية :

« دُعيت الى بيت (مخارق) ..وهو احد المغنين في عصر هرون الرشيد ، فجئته ، فأدخلني بيتاً نظيفاً فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد ، وخل وبقل وملح ، وجدي مشوى فأكلنا منه ...

« ثم دعا بسمك مشوي فاصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحلوى فأصبنا منها وغسلنا ايدينا وجاؤونا بفاكهة وريحان ، والوان من الأشربة فقال : « اختر ما يصلح لك منها » .. فاخترت وشربت .

وقل ما شئت في مجالس اللهو والشراب ، وماكان يجري فيها من خلاعة ومجون امتلأ بوصفها كتاب الاغاني ودواوين الشعراء في ذلك العصر .

واولعوا بالغناء وتفننوا فيه ،وابدعوا في مجالسه من ملح وتنادر وشراب وغير ذلك .

ولعبوا بالنرد والشطرنج وغلوا فيها ، وعنوا بتربيـة الحمام ، وتغالوا في اثمانه ، وتهارشوا بالديوك والكلاب ، واولعوا بالنقش والتصوير ،فكثر رسم الصور في الكأس كما في شعر بشار وابي نواس ورقصوا فكان بعض المغنين يجيدون الرقص ، واحبوا البساتين واكثروا الخروج اليها ، واكثروا من الازهار يزينون بها موائدهم ويتغزلون في لونها وعبقها .

كذلك كانت الحياة في هذا العصر لاهية ضاحكة ،الهبها الشعراء والمغنون وجماعة الاغنياء والوارثين لهواً ومرحاً ، فاصبح العراق الذي كان في عصر الامويين جاداً اذا قيس بغيره كالشام والحجاز ،

اصبح الآن وفي هذا العصر لاهيا ، بل محط انظار اللاهين ، وسائر الامصار انما تقتبس من لهوه ..

مجالس الرشيد

وكانت مجالس الرشيد لما تولى الخلافة تتضوع طهارة ومسكاً ونبلًا ، واذا هو فيها كثير العودة الى نفسه ، كثير الذكر لله عز وجل ، براً سمحاً كأنه الريح السارية ، ولكنه كان الى ذلك محباً للفتوة .. لا يرى في الطرب ومعاشرة الحسان كبير امر ..

غناه (علوية) يوماً بشعر معناه : ان الغواني لا يواصلن من فقد الشباب وقد يصلن الا مرداً ..

فدعا به الرشيد وقال له : يا ابن .. اتغني في مـــدح المرد وذم الشيب وستارتي منصوبة ـ وجواري خلفها ـ وقد شبت ... وكأنك تعوض بي » .. ثم امر به فضرب ثلاثين سوطاً.

وحدث ابراهيم الموصلي يوماً فقال :

« بينما انا عشية في منزلي اذ اتاني خادم من خدم الرشيد ، فاستحثني بالركوب اليه فخرجت شبيهاً بالراكض ، فلما صرت في الدار عدل بي عن المدخل الى طرق لا اعرفها ، حتى انتهوا بي الى دار حديثة البناء ، فدخلت صحناً واسعاً ، وكان الرشيد يشتهي الصحون الواسعة ، فاذا هو جالس على كرسي في وسط الصحن ، ليس عنده احد إلا خادم يسقيه ، واذا هو في البسته التي كان يلبسها في الصيف غلالة (١) رقيقة متوشح عليها بازار رشيدي ، عريض العلم مضرح (٢) فلما رآني هش لي وسر ، وقال :

---

(١) شعار يلبس تحت الثياب .

(٢) مصبوغ بالاحمر .

ـ يا موصلي اني اشتهيت ان اجلس في هذا الصحن فلم يتفق لي إلا اليوم ، واحببت ألا يكون معي ومعك احد ..

ثم صاح بالخدام فوافاه مائة وصيف كانوا في الصحن نفسه مستترين بالاعمدة حتى لا يراهم، فلما ناداهم جاءوا جميعاً فقال : «مقعدلابراهيم» فاتوني بمقعد ، ودعا بعود وقال : اطربني بما قدرت ..

ففعلت واجتهدت في ذلك ورجوت الجائزة .

فلما طرب صاح يقول :

ـ ويلك اسقني ثلاثاً لا امت هماً .. فشرب ثلاثاً متتابعة ...

وكثيراً ما كان الرشيد يعود لنفسه بعد ان يكون قد اخـذ حظه من العبث البريء والمرح الهادي ، فيلتفت لمن حوله من الشعراء يسأله ان يصف له ما هو فيه ..

ولقد حدث يوماً ان كان ابو العتاهية الشاعر في مجلس الرشيد فالتفت اليه الخليفة قائلا : صف لنا ما نحن فيه !

فقال ابو العتاهية :

عش ما بدا لك سالماً   في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد : احسنت ثم ماذا ؟

يسعى عليك بما اشتهيت   لدى الروائح والبكور

فقال الرشيد : ثم ماذا ؟

ولكن ابو العتاهية كان قد عاد الى نفسه .. وظهر عليه الاضطراب فقال :

فاذا النفوس تقعقعت   في ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنـاً   ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى :

ـ لقد بعث اليك امير المؤمنين لتسره فما بالك تبكيه ؟

فقال الرشيد : دعه فانه رآنا في عمي فأنكره علينا وكره ان يزيدنا فيه .

الصيد والقنص

أما اذا اراد الخليفة ان يخرج للصيد والقنص ، فيصدر امره الى حاجبه بذلك ، فيخرج الحاجب الى الفهادين والبيازرة والجمالين واصحاب الصقور والكلاب وسائر خدمة الصيد والقنص ، فيأمرهم بالخروج الى أرض (دجيل) .. وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم الى ذلك المكان ... يعرفونها ولا يحتاجون فيها الى ترتيب او تدريب ..

وأرض (دجيل) عبارة عن قطعة من الارض مساحتها عدة فراسخ في مثلها ، قد احاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة بني بالاعمدة المنصوبة ، وقد شد بعضها الى بعض بالامراس والاسلاك بشكل سور منيع ، وكانت عادتهم في الصيد ان يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور ، فيضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم ، وهي تفر امامهم بين الاعشاب والادغال فلا يزالون يضايقونها ويحدونها حتى تدخل الى ما وراء السور ، ولا يكون لها بعد ذلك مجال للخروج منه ، فاذا انحصرت في ذلك الموضع اقبل الخليفة ومن معه من الخاصة وتأنقوا في القتل فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي ..

وكانت عادة الرشيد اذا خرج للصيد ، ان يجول بعض النهار على الجواد في ارباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم ان الحيوانات قد حصرت وآن صيدها ، فيأتي ويباشر قنص بعضها بنفسه .

وكان اصحاب الصيد اذا خرجوا له جاءوا معهم بصقورهم وبزاتهم وفهودهم كما اسلفنا ، وقد لبسوا الملابس الخفيفة ، وقد علت الضوضاء وتزاحم الناس ، هذا يلاعب صقره ويحرضه على طائر مار فوق رأسه فاذا تحفز الصقر امسكه ، وذاك يقود فهده بسلسلة من الحديد ، وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يوهمه انها وراء شجرة ما ..

وقد امر الرشيد جعفراً ان يتخذ خيلاً ويجريها في الحَلْبة ، فاجرى جعفر البرمكي خيله بالرقّة ، فسبقت خيل الرشيد .

بستان الخليفة

فاذا انتهينا من وصف الصيد والقنص في عهد هرون الرشيد ،فلا بأس من التلطف في وصف بستان الخليفة نفسه ، وما فيه من لباقة الهندسة وبديع الترتيب ، وقد كان الخليفة كثيراً ماينزل اليه يتمشى فيه وحده او مع احد رجال البلاط ، والبستان مقسوم الى مغارس ، بينها طرقات مغروسة بالحصباء الملونة ، يتخللها اغراس من الاشجار المنوعة ذات المناظر الجميلة ،منها المولد في بغداد ،والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان وما بين ذلك من اصناف الرياحين وازهارها البديعة الالوان ... وكلها في مغارسها على احسن هندام يتعهدها (جنان) بالمقراض يقلد بها اشكال الحيوانات ، فيجعل بعضها بشكل

الطاووس او غيره من الطيور الجميلة ، والبعض الآخر بشكل الحيتان او بعض الوحوش الكاسرة كالأسد والنمر ، فيمر الرجل وحواليه الاشجار والانجم والأعشاب من كل صنف ولون ورائحة وهو يحسب بعضها اسوداً رابضة ، او طيوراً دارجة ..

وبين تلك المغارس أحواض يرسل اليها الماء بمجار خاصة .. وفيها من الاسماك أجملها لوناً وألطفها شكلاً ، يتعهدها البستاني بفتات الخبز او بقايا الاطعمة مما يكثر في مطابخ الامراء في ايام الرغد والرخاء .. ناهيك بما رسموه في طريق الحديقة من اشكال الكائنات الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف ألوانها .. فيصورون بذلك زهوراً بألوانها واسوداً او فيلة بأشكالها على نحو ما يفعلون بالفسيفساء ... وكانوا يقيمون لكل من هذه الفنون صناعاً من الفرس او الروم او الهند ممن أتقنوا طرق الزراعة ، وتفننوا في اساليب الهندام .

وكانت زبيدة زوج الرشيد تتخذ الآلة من الذهب المرصع بالجوهر وأمرت بأن يصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ ثمن ثوبها مبلغاً عظيماً من المال ، واتخذت القباب من الفضة والابنوس والصندل ، وكلاليبها من الذهب الملبس بالوشي والديباج وانواع الحرير ، واتخذت شمع العنبر ، وصنعت لنفسها خفاً مرصعاً بالجوهر .

وكان البرامكة مثلها ترفاً ، حتى كانوا اذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم ، كما انتهى ترف شبابهم الى الغاية ، من الاسراف والبذخ ، كانوا يتخذون الابر لجواريهم من الذهب[1] ويتخذون موائدهم من العرعر والذهب ، منزل فيها

---

(١) ابن خلكان

برسوم تحير الابصار ، وكان عند جعفر البرمكي دواة من الذهب غطاؤها لؤلؤة لا تقدر بثمن ، وكانت مجالس الطرب عندهم أجلّ منها في دور الرشيد ، وأجمع لمعدات اللهو ، وكان عندهم أشهر النساء غناء وأحسنهنّ ضرباً بعود ، كما ذكر الاغاني ، فكان في منازلهم اكثر من مائة جارية يحسنّ الغناء ... واذا زارهم الرشيد في بعض الايام أخرجوهنّ له الى البستان ، فاصطففن امامه مثل العساكر على صفين ، وغنين وضربن على العيدان ، ونقرن على الدفوف ، ولعل مثل هذا السرف من الاسباب التي حملت الرشيد على نكبتهم .

وكانت سوق الجواري تقام في سوق النخاسين في بغداد[١]،وكان فيها الحبشيات والروميات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ، وكان بينهن كثير من الغانيات يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر ، وبما يتخذن من الجوهر[٢] على العصائب التي يكتبن عليها بحروف الذهب كلاماً يحلو لأهل الطرب ، وكان على بعض هذه العصائب مثلاً :

قتلتني في الحب يا ظالمُ   والله فيما بيننا حاكمُ[٣]

وعلى عصابة جارية اخرى :

ليس حسن الخضاب زيناً لكفي   حسن كفي زين لكل خضاب[٤]

واذا وقع سوق احداهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هي العادة المألوفة في البيع والشراء .

---

(١) تزيين الاسواق
(٢) الاغاني
(٣) العقد الفريد
(٤) العقد الفريد

ومما يذكر عن بغداد في هذا العصر ان اهلها كانوا الطيب معيشتهم يزينون مجالسهم بالذهب ، ويلبسون حيطانها بالوشي ، ويعنون بغرس الزهور في جنانهم ، ويجلبون الرياحين اليها من الهند[١] ... حتى يصير من هذه الجنان ما يبلغ ثمنه العشرة آلاف دينار[٢] .

وكانوا يتخذون خدمهم ومواليهم من اظرف الغلمان واخفهم نشاطاً ، ويميلون الى اللهو والطرب ، ويقبلون على اقتناء القيان ، ويتفننون في الطعام الى ان يشتروا الصيد في غير اوانه ، والفاكهة في غير وقتها بوزنها فضة او ذهباً ، ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما يمضغون من الطيب وورق التنبول الهندي الذي يمزجونه بالنورة المبلولة مع الفوفل لتطييب النكهة ، وتشهية الأكل واحداث الطرب ، وكانوا يتخذون مقاعدهم في اثناء الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وغيرها مما ينقشون في الرخام ، فاذا ما اصابت الاجسام منها الرطوبة الوافية تبردوا ، واتخذا في السقوف مراوح يعملون لها الحبال تجر بها ، فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد[٣] .

وقد كان من اثر هذا كله ان دبّ في شبابهم مرض الانهاك في اللذات ، واسترسلوا في العبث واللهو الى ابعد حد.. وكان هؤلاء الشباب الذين اغرقوا في ذلك اغراقاً عجيباً ، يعرفون بالمخنثين وهم زينة بغداد في حسن ازيائهم ، ورقة كلامهم ، وظرف معشرهم

---

(١) ياقوت .
(٢) الاغاني .
(٣) الاغاني والكشكول .

وسرعة خاطرهم ، ولا يعابون الا على استمساكهم بلهوهم وعبثهم ودنياهم ، لا يعرفون غيرها ، ولا يفطنون لسواها .

وكان هؤلاء الشباب جماعة خاصة في حياتهم ولباسهم ولهوهم ، فكانوا يتمسكون ويبخرون ثيابهم ، ويلبسون الحلل مصقولة ، ويتعطفون في تثنيهم ، ويلوون كلامهم ظرفاً ، ويتخنثون في غنائهم الهزج [1] ويتحدثون بالظرائف التي يتعلمهاالناس منهم ليوسموا مثلهم بالظرف ، وكانت لهم محلات خاصة ، وجنان معينة يقصدونها وينفقون فيها الوقت لهواً وأنساً ..

وكان هؤلاء الشباب اذا افلسوا ، ولم يبق بامكانهم الاسراف واقتناء الحلل الغالية التي تبلغ مئه دينار ثمناً ، اكتروا ثيابا بالاجرة ليتهيأ لهم مصاحبة الموسرين الى بيوت الفواجر ، منهم من يكتري الخلعة عن كل يوم بدرهم او بدرهمين [2] فيلبسونها أياماً ، ثم ينتقلون الى غيرها .

ومن الحق ان نقول ان الوصف الذي تخيرنا بعض الوانه في هذا الفصل ليس حال الناس جميعاً ...

كان هناك جماعة غير هؤلاء اللاهين ينصرفون الى الاحسان في مختلف المعارف والفنون الاجتماعيه ، كان هناك ادباء وكان هناك تراجمة وكان هناك مفكرون ، فاذا وقع القارىء مثلاً على كتاب الاغاني وتنقل في صحفه من ضرب في اللهو الى آخر ، او قرأ ديوان ابي نواس فرأى اكثره خمراً ومجوناً ، فلا يظنن ان ذلك يمثل حياة

---

(١) الاغاني .
(٢) الاغاني .

العصر بأجمعها ، انه يمثل بالتأكيد ناحية واحدة من نواحيها المتعددة ، ووجوهها المختلفة .

لقد كانت بغداد في عهد الرشيد كباريس اليوم .. يكرهها جماعة كثيرون من اهل الورع والصلاح والزهاد ، حتى لقد قال واحد : «ان بغداد ضيعة على المتقين .. لا ينبغي لمؤمن ان يقيم بها ..»

وسبب ذلك كثرة اللهو والمجون والاشربة وانواع الاستباحات التي كانت تملأ شطراً من احيائها ، واغرب من ذلك ان بغداد كانت ضيقة في هذا العهد على الفقراء ايضاً ، لغلاء الاسعار فيها ، وهذه ظاهرة تلازم كل بلد يكثر المال فيه ..

ثروة الدولة

ولقد فاقت بغداد في عهد الرشيد كل حاضرة عرفت لعهدها ، كان سكانها يقاربون المليونين من الناس بالتأكيد ، وكانت القصور الفخمة تعج في شوارعها وعلى نهر دجلة ، وبعضها انفق على بنائها المبالغ العظيمة الطائلة ، وتأنق مهندسوها في احكام قواعدها وتنظيم امكنتها ، وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تساوق قصور الجانب الغربي ، وكان في الشرق قصور البرامكة ، وما انشأوه هناك من الاسواق والجوامع والحمامات ، والقصر الجعفري الذي بناه جعفر كان اول القصور الجميلة التي بُنيت حوله ، وقد استعملها المأمون بعد ذلك واسماها دار الخلافة ، وقامت هذه القصور على رحبة حولها الحدائق الجميلة الرائعة ، وبالجانب الغربي كانت قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً .

وامتدت الابنية امتداداً عظيماً ، حتى صارت بغداد عدة مدن متلاصقة تبلغ الاربعين على جانبي دجلة ، واستبحر العمران وازدحم السكان ، وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً ، تأتيها من خراسان وما وراءها من الهند والصين ومن الشام والجزيرة ، والطرق آمنة والسبل مطمئنة ، لا يجرأ احد على قطعها والوقوف في سبيل التجار المسافرين فليها .

اما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة في بغداد ما يبقى من خراج الاقاليم الاسلامية بعد ان تقضي جميع حاجاتها ، وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو اربعة مئة الف الف درهم ، يدخل كله بيت المال ، فيصرف بعضه على مرتبات الوزراء والموظفين والمساعدين والباقي يتصرف فيه الخليفة كما يشاء ويريد ..

وكان الرشيد اسمح الخلفاء بالمال ... يعطي منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتاب والمنتجعين ، وقد جرى على سنته كبار وزرائه وشيوخ دولته وقواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم ، وتتداول الايدي هذه الثروة العظيمة فتروج التجارة وتقضي الحاجات وتكثر المدنية ، ويستبحر الترف ، ويزداد العمران حتى صارت بغداد تبهر اعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وبين ما يرون من جمالها ، وبذخ اهلها وانغماسهم في الملاذ واعطائهم انفسهم ما تصبو اليه من لهو ومرح وعبث .. شأن كل امة سالت عليها سيول الثروة .

واما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الامصار الاسلامية ، يرحلون اليها ليتموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون ،

كانت المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها ، كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة واداب العربية ، وكلهم منصرف للدرس والتعمق ، يحاضر تلامذته في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم ، وقلما كان يتم لانسان علم وتستطير له شهرة إلا اذا رحل الى بغداد واخذ عن علمائها .

كان يعيش كل العلماء عيشة رغد وسعادة ، بما كان يفيض عليهم الرشيد ووزراؤه وقواده من الخير الواسع .

لقد كان هذا عهد هرون الرشيد ، عهد حضارة وعلم ومعرفة وثراء وكما كان للويس الرابع عشر عهد ، كان لهرون الرشيد عهد مثله ، ولكن هذا العهد لم يكن من صنع الرشيد نفسه ، وانما بلغ في ايامه غاية الغايات ، وكان لهرون نفسه اليد الطولى في تقويته وتغذيته ، بما كان يفيضه على رجال العلم والادب من المال الوافر ، وبما كان يكنّ لهم في صدره من حب وتقدير ..

وكان الرشيد طويلاً [1] عبل الجسم [2] ، اشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالهم ، وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، شجاعاً قوياً يقود الجيش بنفسه الى المواضع الخطرة ، ولكنه كان شديد الغضب كثير الاستماع لاخبار السوء ، وكان اذا بلغه عن احد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يستطيع احد ان يكلمه ، واذا وقع عدوه في يده لا يتأخر عن البطش به .

ولكنه في الوقت نفسه كان متواضعاً رقيقاً محباً للعلم والعلماء ،

---

(٢) العقد الفريد .

(٢) تاريخ الخميس ٢ – ٣٣١ .

قال ابو معاوية الضرير ، وكان من كبار العلماء : اكلت مع الرشيد يوماً فصب على يدي الماء رجل، فلما انتهى من ذلك سمعت الرشيد يقول:

ـ يا ابا معاوية اتعلم من صب الماء على يدك ؟

فقلت : لا يا امير المؤمنين .

قال : انا ..

فقلت : يا امير المؤمنين انت تفعل ذلك اجلالاً للعلم ؟

قال : نعم

وكان الرشيد محباً للتجديد في كل لون من الوان الحياة ، فجمع حوله العلماء والأطباء وجلب بعضهم من الهند ، واغدق المال على اصحاب العقول، وساعد على نمو العبقريات، فهو الخليفة المثالي الذي عمل للدنيا والدين ، فوسّع على الناس في الحالتين ، وعمل لدنياه كما عمل لآخرته ...

ولقد نمت الحضارة وألوان الأدب والمعرفة في عهده نمواً عظيماً.. وامتزج الادب العربي بالحضارات التي قامت قبله ، فأصبح رقيقاً يجمع الى كثير من ألوان الوصف الجديد ، مما لم يستمع الى مثله العرب قبل اليوم ، ولم تعرفه البداوة قبل ذلك العهد ..

واما الغناء فان كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني خير شاهد على تقدم هذا الفن في عهد الرشيد ، وعلى تعزيز الرشيد له وشغفه ، ولم يقتصر الرشيد وحده في حبه للعلم والفن ، بل كان كل رجاله مثله رغبة وحباً وتعزيزاً حتى ان زوجته زبيدة شادت لنفسها قصراً في الكرخ جمع ألواناً من أرقى مابلغ اليه فن العمارة في ذلك العهد ، وزادت ندى فأنشأت في طريق الحج محطات يستريح فيها

الحجيج ويجدون فيها حاجاتهم من الماء .

واما البرامكة فقد كانوا من اكبر المؤيدين لكل ماذكرنا ، فشادوا القصور ، وعززوا المعارف ، واكرموا العلماء والادباء والشعراء وساسوا الامبراطورية سياسة رفق وحسن تصريف للامور تمكنت معها الحضارة في ذلك العهد من ان تسير سبيلها دون ان تجد عائقاً ..

وكما كان لهرون الرشيد مجالس ادب وعلم ، كان للبرامكة مثلها ايضاً ينتظم حولهم الكتاب والادباء والشعراء فيتحدثون ويتناقشون ويصيبون الجوائز ويخرجون ، وقد اثقل البرامكة كاهلهم بالعطاء والاحسان ، خصوصاً الاطباء منهم فان البرامكة كانوا ينظرون اليهم نظرة خاصة ويساعدونهم في ابحاثهم واعمالهم ..

روى الجاحظ عن (ثمامة) انه قال : كان اصحابنا يقولون ، لم يكن يرى لجليس (خالد بن يحيى البرمكي) دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع امه ان كانت أمة ، او أدى مهرها ان كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها .

حتى لقد قال الشاعر :

ما لقينا من وجود (فضل بن يحيى)
ترك الناس كلهم شعراء

والبرامكة كما قدمنا كانوا مثقفين ثقافة واسعة ، وفي الغاية من العلم والادب والفصاحة ، يقول سهل بن هارون في وصف يحيى بن خالد البرمكي وولده جعفر بن يحيي :

« لو كان الكلام يتصور دراً ، او يحيله المنطق السرّي جوهراً لكان كلامها ... والمنتقى من لفظها »

ويكاد يجمع المؤرخون على ان اجمل ايام بغداد وابهاها كان في عهد هرون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) اذ اصبحت في عهده عاصمة العالم ومركز التجارة والسياسة والعلم والثقافة ، وكان تقدمها طبعاً يساوق تقدم الامبراطورية التي كانت عاصمة لها .

فالقصر الملكي مثلاً مع متفرعاته للحريم والخصيان والعبيد والخدم والحشم والموظفين كان يأخذ نصف المدينة المربعة — اي مدينة المنصور — وكان يلفت النظر فيه غرف الاستقبال الحمراء في فرشها وستائرها ، وكانت زبيدة زوج الرشيد لا تسمح ان يوضع على سفرتها صحن لم يكن من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، وكانت هي التي تقرر مسألة الزي او (الموضة) النسائية في ذلك العصر ، وهي اول من وضعت الجواهر على حذائها .

ولما حجت الى مكة صرفت في حجها هذا ما يقارب الثلاثة ملايين دينار بما في ذلك الماء الذي جلبته الى البلد الحرام عن بعد عشرة اميال.

وكان يأتي بعد الرشيد واهله في البذخ والسرف ولين المعيشة آل العباس ثم الوزراء ، فالموظفون في البلاط الملكي ،وكان العباسيون والهاشميون يأخذون العطاء من الخزانة العامة حتى اوقف ذلك المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) ، واتسعت الثروة عند بعض الافراد في هذا العصر اتساعاً عظيماً ، حتى قدرت ثروة الخيزران والدة الرشيد بستة عشر مليون درهم في السنة .. ولما استولى الرشيد على اموال محمد بن سليمان وجد عنده خمسين مليوناً من الدراهم نقداً ، ومائة

الف درهم من الواردات في كل يوم ..

الهوى والشباب

كذلك كانت الحياة في بغداد ، مختلفة الألوان ، عابقة بالأزهار والرياحين ، يجد فيها طالب العلم بغيته ، وصاحب العمل عمله ، وطلاب العبث واللهو ما يشتهون ويريدون .

ومن المفروض ان يستتبع كل حضارة اغراق في اللذة ، وميل الى الترف والبذخ ، فتكثر حفلات الانس ، وتعمّ جلسات الأشربة والغناء والطرب ، واذا كانت بغداد قد فاقت بلاد العالم عهد الرشيد في حضارتها ومعارفها وثقافتها ، فقد فاقتها ايضاً بعبثها ولهوها ، ومراتع الهوى والشباب فيها .. فدرج العابثون الوارثون من شبابها الى الحانات تقوم في اطراف بغداد ، حيث تباع الخمرة ، وحيث اللذة والنشوة والغرام والعبث واللهو ...

ووصف الشعراء هذه الحياة العارية وصفاً رائعاً جميلا ، وكان أصدقهم وصفاً ابو نواس الشاعر البارع ، فأحسن ما شاء له الاحسان ، وأجاد ما شاءت له الاجادة ، فخرجت قصائده ، تصور لنا هذه الحياة الثائرة العارمة على نحو لم نألفه في شعر غيره من شعراء العرب ..

كانت كل قصيدة من قصائده قصة لحادثة من حوادث لهوه وعبثه واستهتاره ، ولم يكن المستهترون من شباب بغداد وشعرائها ، يشربون على قدر كما يظهر ، بل كانوا يشربون حتى يعمى كل شيء في وجوههم ، وحتى يتعتعهم السكر فلا يفيقون إلا في اليوم التالي ليعودوا الى الشراب والاستماع الى الغناء ومشاهدة الراقصات من الجواري والحسان ..

لقد حلّ ابو نواس مرة شهراً كاملاً في حانة من الحانات، ما يكاد يفيق من سكره حتى يعاود الشراب، والأمين يطلبه ويسأل عليه فلا يعثر له الشرط على اثر، حتى عثروا عليه عند خمار يهودي، فأتوا به الى الخليفة، فأنبه وأنذره، ثم سأله ان كان قد وصف حالته هذه، فأنشده قصيدة وصف بها سكرته الطويلة هذه تعد من اجمل شعره، وأصفى قصائده ...

وكان القوم اذا جلسوا للشراب، أحاط بهم الغلمان والجواري، من كل ذي وجه جميل، وقوام لطيف، ورقص بديع ...

وكان السقاة الذين يقومون على تقديم الشراب سواء أكانوا من الغلمان ام من الغلاميات ـ وهن النساء يلبسن زي الغلمان كما كانت العادة في ذلك العهد : وقبل ان عرفت باريس والعالم المتحضر هذه الظاهرة ـ ابداً ممن يحسنون الكلام ويجيدون الغناء وينعمون بالوجه الجميل والطلعة الرائعة ...

وكذلك جمعت بغداد في عهد الرشيد أرقى مراتب الحضارة، وأدنى مراتع الفحش والتبذل، وفي هذا ما يؤكد ان الحضارة حين تبلغ ذروتها، وتصل الى غاياتها، في كل عهد وقطر، لا بد ان تنفر من عقال الاخلاق المتفق عليها، ويتجه افراد الناس، سواء أكانوا من الادباء او الشعراء او سواهم، الى سبل جديدة، وطرق لم تحدّدها المسالك، ولم تعبّدها التقاليد، حيث ينشئون لأنفسهم اساليب خاصة في الحياة، وحيث يخلقون ألواناً من الأخلاق تساير مشاربهم وترضيها نفوسهم، وهي اخلاق قد تكون، وفي كثير من الاحيان، مخالفة للأخلاق القائمة، والتقاليد المقررة[1] ...

---

(١) ابو نواس في مباذله ... للمؤلف .

- ١٠ -

وفاة الرشيد

الى خراسان

لما اشتد امر « رافع بن الليث » في خراسان ، وانتقض اهلها على بني العباس لعتو « علي بن عيسى » عليهم ، واستبداده بهم ، انفذ الرشيد كما قدمنا هرثمة بن اعين احد قواده ، لعزله ، والقبض عليه ومحاسبته ، ثم رأى بعد ذلك ان يشخص بنفسه ، وان يقوم على تنظيم الامور وتهدئة الحال بشخصه .

وخلف على بغداد محمد الامين ولي عهده ، وجعل معه يحيى بن سُليم الكاتب ، وكان الرشيد كلف المأمون ابنه وولي عهده بعد الامين البقاء في بغداد ، فقال له الفضل بن سهل ، وكان على كتابة المأمون وامره :

ــ لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ـ وكان الرشيد قلد المأمون خراسان وجُرجان وطَبرستان والرّي وما يضاف اليها ـ ومحمد الامين المقدم عليك ، وان احسن ما يصنع بك ان يخلعك ، وهو ابن زبيدة واخواله بنو هاشم ، ومعه زبيدة

واموالها ، فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه ..

فسأل المأمون اباه اشخاصه معه ، فاجابه بعد امتناع ..

وكأنما الرشيد كان يحس بانه ذاهب لمآبه ، فيقول الى الصباح الطبري : ما اظنك تدري ما اجد ؟.

فقال الصباح : لا والله ..

فعدل الرشيد عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وامر خواصه بالبعد ، فكشف عن بطنه فاذا عليه عصابة حرير ، فقال :

ـ هذه علة اكتمها الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين ، وما منهم احد إلا وهو يحصي انفاسي ويستطيل دهري ..

والطريق بعيد الى خراسان والشقة طويلة ، والسبل صعبة متعبة والرشيد يتقدم جيشه على جواده الاصيل وهو بملابسه السوداء .

وتمضي الايام فيتملكه التعب ،ويغلبه النصب ،وتهم به الذكريات السوداء ، ما الذي يدفعه الى هذه الارض التي نشأ فيها ؟ لقد ولد الرشيد في الري ، وهو اليوم يعود اليها .. وكأن هناك قوة خفية تدفعه نحوها ..

لقد اخذ الموت كل محبيه ، فقد حملت الرسل اليه وفاة الفضل بن يحيى في سجنه ، فيحس الرشيد بان اجله قريب منه ، وانه لاحق باصدقائه ومؤسسي ملكه ودولته ...

وكان الفضل بن يحيى قد مات في حبسه بالرقة ، مات في المحرم من سنة ١٩٣ ، وذلك قبل الرشيد بخمسة اشهر ، وكان يقول :

ـ ما احب ان يموت الرشيد.. لان امري قريب من امره ..

الرشيد مريض ولكنه يجالد نفسه .. ويسير في طليعة جيشه وهو يتألم ، ولكنه لا يجرأ علي التحدث بألمه الى من حوله من الرجال والاعوان ... كان على مثل اليقين من ان رجاله ينتظرون موته بفارغ الصبر ، وان بعضهم يتجسس عليه لحساب ولده ... هـــذا فارس يسرع من بغداد الى معسكر الجيش يتعرف على اخبار الرشيد وصحته ، انه يعمل لحساب الامين ولا شك ، والامين يعلم يقيناً ان والده مريض جداً ، وان الخلافة اصبحت قريبة .

ولكن الضعف يتملك الرشيد فاذا به ما يستطيع تقدماً ، فيقف الجيش في (طوس) من اعمال خراسان ، وينقل الخليفة الى منزل في ضاحية المدينة تحيط به الأشجار ، فيرسل رجاله الى طبيب فارسي فيفحص الطبيب (ماء) الرشيد ، ثم يقول :

ــ بلغوا صاحب هذا الماء انه هالك فليوص ، فانه لا برء له من هذه العلة ...

ويشتد به الضعف ، ويرجف الناس بموته ، فيدعو بحمار يركبه فلما صار عليه سقط فخذاه فلم يثبت على السرج ... لقد كان يريد ان يموت على جواده لا في فراشه ، ولكن القدر يغالبه فيقول :

ــ انزلوني ... انزلوني !!

وينقل الرشيد الى فراشه ، فيحاول النوم فلا يواتيه ، وتتمثل امامه الرؤى والاحلام ، حتى ليرى قبره بعينيه ..فيعرف انه مائت في الأرض الذي هو فيها ...وانه مدفون في طوس نفسها ...

ويدعو الرشيد باكفان فيختار منها ما اراد ، ويأمر بحفر قبر له فاذا نظر اليه قال : ما اغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ..

ولما صار الرشيد بطوس ، واشتدت علته ، اتصل خبره بمحمد الامين ، وكانت له عيون في عسكره ، فوجه ببكر بن المعتمر ، وجعل له في كل يوم الف دينـــار ، ودفع اليه كتاباً الى الفضل بن الربيع ، واسماعيل بن صبيح وغيرهما ، يأمـــرهم بالقفول الى مدينة السلام ان حدثت بالرشيد حادثة ، وكان الرشيد قد جدّد الشهادة للمأمون بجميع ما في عسكره من مال واثاث ورقيق وسلاح ، وامر باقرار الجميع معه ، وتسليمه اليه ، ان حدثت به حادثة ..

وكان رسول الامين يحمل كتاباً ظـــاهره الاطمئنان عن صحة والده ، وكتباً باطنهـــا الى القوم من انصاره بالقفول الى بغداد كما قدمنا ، والاحتياط على باقي العسكر ، فاتصل خبر الكتب البـاطنه بالرشيد ، فامر باحضاره ومطالبته بها ، فانكرها ، فحبسه ..

وفي هذه الاثناء طلب الرشيد احضار (بشير بن الليث) شقيق (رافع) الثائر ، وكان (هرثمة ابن اعين) قائد الرشيد في خراسان قد حدثت بينه وبين اصحاب رافع موقعة كان الظفر فيها لهرثمة وافتتح بخارا ، واسر بشيراً اخا رافع فبعث به الى الرشيد وذلك سنة ١٩٣

فلما احضروه بين يديه قال له الرشيد : والله لو لم يبق من اجلي إلا ان احرك شفتي بكلمة .. لقلت «اقتلوه» .

ثم دعا بقصاب فامر به ، ففصل اعضاءه ، فلما فرغ منه اغمي عليه وتفرق الناس عنه ، فلما أيس من نفسه ، امر بقبره فحفر في موضع من الدار ، التي كان فيها ، وانزل اليه قوماً فقرأوا فيه القرآن ، وهو في محفة على شفير القبر ، يقول : ابن آدم تصير الى هذا .

ولما اشتدت بالرشيد العلة ، دعا بمن في عسكره من بني هاشم

فقال لهم :

ــ ان كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بي ما ترون وانا اوصيكم بثلاث ، الحفظ لامانتكم ، والنصيحة لائمتكم واجتماع كلمتكم ، وانظروا محمداً وعبدالله ، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه ، وقبحوا اله نكثه .

ثم قال : لقد جئنا الى هذا المكان لقمع الثورة ومحاربة العصاة فسيروا بالجيش الى خراسان ، وقوموا بواجبكم في قطع دابر الثورة ومحق الثوار ، لا يهمكم مصيري ... فان احداً من اجدادى لم يمت في فراش الراحة ... واتركوني مثلهم في المكان الذي ينزل فيه الموت على بين يدي ربي ، وبباب رحمته وعدله وغفرانه ...

واقطع في ذلك اليوم اموالا وضياعاً لرجاله وبعض خاصته ..

وفي الليل نفسه توفي هرون الرشيد ، وقد انتقل الى رحمة ربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادي الآخرة سنة ١٩٣ هجرية .

وغسله وكفنه عبيده الثلاثة مسرور وحسين وراشد ، وأنزلوه في القبر الذي امر بحفره لنفسه ،في مدينة طوس ، وصلى عليه ابنه صالح ، لغياب المأمون في مرو حاضرة خراسان ،وكان قدسبق والده اليها ليعمل على تهدئة الحال ، وتعبئة الجند واعداد المنازل لنزول الجيش وتهيئة الذخائر والاقوات ..

وحضر وفاته « الفضل بن الربيــع » و « اسماعيل بن صبيح » ومسرور ، وحسين ورشيد وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً ، وكان عمره سبعــاً واربعين سنة ، وخمسة اشهر وخمسة ايام ، وكان جميلا وسيما ابيض جعداً قد وخطه الشيب .

وترك في بيت المال لما توفي تسعمائة الف الف درهم ونيف .

العودة الى بغداد

واما رسول الامين فكان ينتظر الموت في سجنه ، حتى همّ باظهار الكتب ، ولكن توفي الرشيد قبل ان يصار الى تعذيبه ، وبينما هو في حاله هذا ، أقبل عليه (الفضل بن الربيع) ، فلما قرب منه ، امر الخدم بحل وثاقه ، ففعلوا ثم قال له : اعظم الله اجرك في امير المؤمنين ...

وأخذ بيده فأدخله بيتاً كان الرشيد مسجى فيه ، وكشف عن وجه الرشيد ، فلما رآه رسول الأمين ميتاً أظهر الكتب ، وكان قد وضعها في صندوق بين الجلد والخشب ، واذا في الكتب ما قدمنا من الامر بالقفول الى بغداد ، وحمل ما في المعسكر من المال والمتاع والسلاح والاثاث .

فلما قرأ الفضل الكتب ، وما فيهامن اقراركل على عمله كصاحب الشرطة ، والحرس والحجابة ، تشاور هو والقواد في اللحاق بالامين ثم قال :

ـ لا ادع ملكاً حاضراً لآخر ما ادري ما يكون من امره ..

وامر الناس بالرحيل فرحلوا محبة منهم لاهلهم ، ووطنهم ، وتركوا العهود التي كانت اخذت عليهم للمأمون ، وتركوا حرب خراسان وكأن الثورة فيها لا تعنيهم ولا تهمهم .

ـ انتهى ـ

فهرس الكتاب

الصفحة	
٣	مقدمة المؤلف
١٠	العهد الاول
٢٧	بغداد عاصمة الدنيا
٥٢	الرشيد في عاصمته
٧٦	الحالة الداخلية
٩٥	السياسة الخارجية
١١٠	سقوط البرامكة
١٣٨	رأس جعفر
١٩١	الهوى والشباب
٢١٨	وفاة الرشيد

المطبعة التجارية

بيروت ـ شارع المارسلياز ـ تلفون ٤٢٧٣٩

DATE DUE





